المركز القومى للترجمة



المشروع القومى للترجمة

محمد حجازى

پريچهر
ملائكية الوجه

ترجمة: سامية شاكر عبداللطيف

مراجعة: ماجدة العنانى

2076

سلسلة الإبداع القصصى

پريچهر

ملائكية الوجه

(رواية)

تأليـــف: محمـــــد حجـــازى

ترجمـــة: سامية شاكر عبد اللطيف

مراجعـــة: ماجـــدة العنـــانـــى



2013

المركز القومى للترجمة
تأسس فى أكتوبر ٢٠٠٦ تحت إشراف: جابر عصفور

إشراف: فيصل يونس

سلسلة الإبداع القصصى
المشرف على السلسلة: خيرى دومة

- العدد: 2076
- بريجهر: ملائكية الوجه
- محمد حجازى
- سامية شاكر
- ماجدة العنانى
- الطبعة الأولى 2013

هذه ترجمة:

پريچهر

تأليف: محمد حجازي

شارع الجبلاية بالأوبرا- الجزيرة- القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤
El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.
E-mail: egyptcouncil@yahoo.com Tel: 27354524 Fax: 27354554

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

حجازى، محمد .
ملائكية الوجه / تأليف : محمد حجازى .
ترجمة : سامية شاكر عبد اللطيف ، مراجعة : ماجدة العنانى
ط١، القاهرة: المركز القومى للترجمة، ٢٠١٣
١٥٦ ص، ٢٠سم
١ ـ القصص العربية
(أ) عبد اللطيف ، سامية شاكر (مترجمة)
(ب) العنانى ، ماجدة (مراجع)
(ج) العنوان
٨١٣

رقم الإيداع ٨٨٥٦ / ٢٠١٢
الترقيم الدولى : 978-977-216-078-5
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

إهداء

إلى سبب وجودي في الحياة أبي وأمي.....

المترجمة

كنت في طريقي إلى فرنسا، وصلت إلى ميناء "پهلوي" قبل ثلاثة أيام من تحرك السفينة، ولأنها كانت المرة الأولى لي التي ابتعدت فيها عن المنزل والأسرة، فكان مجرد التفكير بأنني سأكون وحيدًا في هذا السفر، يضايقني ويبعث بخاطري أفكارًا غامضة، وأخرى جديدة كل ساعة.

ولأنني كنت مستعدًا لمواجهة المصاعب والأخطار، شعرتُ بالرجولة والرضا. أسير في الفندق، يمينًا ويسارًا مستقيم القامة بخطوات ثابتة، أتحدث بحدة واقتضاب، كنت أعبر البحيرة بين "غازيان" وميناء "پهلوي" يوميًا عدة مرات، كي أكون رجلاً، وكنت أقنع نفسي أنني لا أخشى الماء والبحر، ورغم عدم معرفتي باللغة "الروسية" كنت لا أخاف من مشاكل الجمرك، عند العبور من الأراضي الروسية. أعد نفسي أنني بمجرد الوصول إلى باريس، سأقوم بشرح المصاعب والمصائب التي لا تحتمل لأصدقائي وأصحابي، سأكتب لهم بالتفصيل حتى يضيف ذلك صفة النضج إلى باقي أوصافي، فأكون موضع حسدهم أكثر.

ورغم ذلك، فقد كنت لا إراديًا أتوجه إلى مدير الفندق عدة مرات يوميًا، حين أرى ضيفًا مجهولاً يدخل، وأسأله: أليس هناك مسافر إلى "باريس"؟ في اليوم الثالث، قال رئيس الفندق: ذلك الشاب الذي تراه يجلس على الكرسي بركن الحديقة، وهو يحتضن كلبه،

سيذهب إلى "باريس". شكرته ودخلتُ الحديقة، كنت أسير بكل اتجاه، وأحيانًا أمشي بجوار ذلك المسافر إلى "باريس"، فكنت أنظر إليه. كان شابًا وسيمًا قوي البنيان، إلا أن أثرًا لجرح غائر كبير في جبهته بالقرب من طرف حاجبه، كان يبدو على جبينه، لهذا كانت عينه اليمنى مغمضة قليلاً، كان ذلك على وجه الخصوص هو ما يلفت النظر، كان شابًا أبيض الوجه أشقر الشعر.

كأنهم رفعوا حملاً ثقيلاً من على كتفي فاسترحتُ، فارقني كل ذلك القلق والخوف من السفر وحيدًا، وهو ما لم أكن أود الاعتراف به لنفسي. اقتربتُ من الشاب المسافر، وحاولتُ قدر استطاعتي أن أبدو لطيفًا. في البداية نظرتُ إلى الكلب نظرات ودودة وبلطف، بعد ذلك قلتُ بأدب: سيدي، لعل سيادتك مسافر إلى "باريس"؟ فنظر إليَّ بطرف عينيه، وقال بهدوء: أي أوامر؟ رأيتُ في عينيه آثارًا لعالم من الحزن، فانتابني اليأس والندم، لكن لم يكن هناك مفر من الجواب. فقلتُ: سمعتُ أنك مثلي مسافر أنت أيضًا إلى "باريس"، فسررت لأن أحد الإيرانيين سيكون رفيقي في السفر. ودون أن يرفع رأسه قال بصوت منخفض: لكني للأسف أحب أن أكون وحدي.

كان من الواجب أن أستودعه الله وأتركه وراحته، لكن لأن قوله صراحة بأنني أريد أن أكون وحيدًا، لم يكن عاديًّا، فحرك ذلك وبقوة لدي مشاعر الفضول، تخيلت أن هذا المسكين لا بد أنه أسير حزن وألم شديدين، أو لعله تجرع كأس الألم من شخص ما، أو عدة

أشخاص ممن يُنسبون إلى بني البشر، ولكونه عديم الخبرة، فقد كـرِه كل البشر، أو لعل معنوياته قوية بدرجة لا تجعله يحتاج إلى الرفقة والتسلية، ولا يريد أن يمَل الآخرون من حزنه. تحدثتُ عن طقس الربيع الفتّان ونضارة الخضرة والماء، وتكلمتُ عن جفاف "طهران". الخلاصة أنه لم يقبل صداقتي مهما حاولت، مع هذا ولأن نبرته ونظرته تدل على الألم والمحنة فلم أحزن وابتعدت، لكنني كنت لاإراديًا أراقب أحواله وأفعاله، كان يتجنب الجميع، ودائمًا مشغولاً مع كلبه.

ركبنا السفينة المعروفة بالتركمانية، إذا أردتَ أن تعبر بحر الخزر، فلا تركب تلك السفينة، مهما كلفك ذلك من انتظار لعدة أيام حتى تأتي سفينة أخرى. لسوء الحظ هبت عاصفة، فسقط هذا الشاب فريسة مرض دوار البحر، فحنثت بالقَسَم الذي أقسمتُ به للتو، وقمتُ بتمريضه، ولم أكن أبتعد عن وسادته لحظة. كان ينظر لي بامتنان، فلم تكن لديه القدرة على الكلام. حين وصلنا إلى"باد كوبه" ورست السفينة، انخفضت حرارته، لكنه كان ضعيفًا حتى أنه لم يكن يستطيع السير، وسلَّم نفسه لي. فأمسكته بكل حب من ساعده، ووصلنا إلى اليابسة، ثم ركبنا معًا عربة تجرها الخيول.

كان اضطراب العربة بسبب الطرق غير المعبدة لهذه المدينة، متعبًا منهكًا. لم نكن مضينا في الطريق إلا بضع دقائق حتى اتَّكأ

الشاب عليَّ، وغاب عن الوعي، وقد اصفرَّ لونه. لم يقبلوه في الفندق على تلك الحالة، فذهبنا إلى المستشفى. بعد ساعة من العلاج، استرد وعيه، واتضح أنه مريض بالقلب، كان الطبيب يقول: هذا الشخص إما أنه مصاب بتسمم، وإمَّا أجهد نفسه، أو يعاني بشدة من آلام العشق.

رفعت محبتي وخدمتي له بإخلاص ذلك الحاجز الحديدي للصمت من بيننا، ورحب بي الشاب بكل قلبه.

كانت الأزمة القلبية تهاجمه في اليوم مرتين أو ثلاث، بعد إحدى هذه الأزمات، حين رأيتُ أنه يبدي لي الامتنان ويعاملني بلطف، لأنني ساعدته في حركته المعوقة، انتهزتُ الفرصة، وعلى عكس ما هو متعارف قلتُ: أعتقد أنك أظهرتَ لي محبتك، وربما تكون قد قَبِلت صداقتي لك، لهذا سمحت لنفسي أن أسأل عن تلك الأسباب الثلاثة التي قال عنها الطبيب إنها سبب مرض القلب، أيها يصدق على حالك.

فكر قليلاً ثم سال الدمع من عينيه، وقال بصوت حزين وكلمات متقطعة: "أنا لستُ جديرًا بالصداقة، فأنا شقي زماني الأسود، الله والطبيعة قد حكما عليَّ... أنا قاتل! نعم ارتكبتُ جناية، قتلتُ إنسانًا! فكيف لي أن أتوقع من أحد الصداقة". ثم بكى قليلاً، وقال: "أرى أن قلبك رقيق، إنك إنسان طيب، لهذا أتمنى أن أضع همومي لديك؛ لأن الطيبين يحملون عبء هذه الدنيا الثقيل، لحسن الحظ، إنني

الآن لدي العذر لألقي بهذا العبء عليك؛ لأنك سألت عن سبب مرضي، ولأنني أتوقع ألا أخرج من هذا المستشفى، لذلك فقد تصورتُ أن أطلب منك أولاً أن تعامل كلبي هذا بنفس اللطف الذي عاملتني به، وأن ترعاه وتسلمه لأخي، فأنا أحب هذا الكلب أكثر من روحي. لا تتعجب، حين تطلع على سيرتي الذاتية، ستعطيني الحق في ذلك. ثانيًا: أرجو أن تسمح لكل الناس بقراءة قصة حياتي، والتي كنت قد كتبتها مؤخرًا حين أقمت بـ"رشت" لمدة شهرين، أعطها لكل الناس، ربما يستفيد البعض من المحن التي مرت بي فيعتبرون، ومن بين القراء من يحاكمني، فإذا حكموا ضدي، فسوف تظل روحي معذبة إلى الأبد، ولو سامحوني، فقد خلصوني على الأقل من آلام سوء السمعة. أضف في بداية الكتاب أنني أقسم لهم أنه لا توجد به أية واقعة من هذه الأحداث مخالفة للحقيقة، وما أكثر الأقوال التي قمت بحذفها خوفًا من أن تحمل صفة المبالغة أو المدح، التغيير الوحيد في الحقائق هو تغيير الأسماء، وامتنعتُ عن تحديد مكان الأحداث فوضعتُ النقاط مجملة. الكتيب في الحقيبة، خذه واذهب إلى حجرتك، سوف تقرأه في ساعة أو ساعتين، لكن عِدني بعد القراءة، أن تقول لي حكمك دون أي تردد، ولا ترحمني...".

ثم وضع يديه على عينيه.

* * *

نهضتُ وبسرعة أخرجتُ الكتيب من الحقيبة، وذهبتُ إلى حجرتي، أغلقتُ الباب، وفتحتُ الكتاب بقلب حزين متعجل، كُتِبَ فيه:

حين تريد في الصباح أن تتذكر حلم الليلة الماضية، فإنك تعاني كثيرًا. وقد استيقظتُ على حلم بضع سنين مفزعة مخيفة، أودُّ أن أشرح ذكريات هذه الأيام المليئة بالاضطراب والحيرة، وأضعها أمام عدالة البشر. مهمتي صعبة جدًا؛ لأنني وقفتُ أمام قاضي محكمة الضمير العام أسأله، وحكم هذه المحكمة لا يقبل الاستئناف، وهو مكمن الخطر، ينبغي أن أدقق جيدًا؛ لأنني وبحركة صغيرة سأنزلق إلى هوة سحيقة مظلمة من سوء السمعة، وسيعْبر الناس من فوقي، ويضحكون على سواد يومي، ولن يمد لي أحد يدَ الرحمة، ولن يكلف صاحب ضمير نفسه عناء المعرفة لإبداء الرأي في ديني. كل مَن يصفونه أنه سيئ ذات مرة فلن تقوم له قائمة مرة أخرى، الدنيا لا تنظر وراءها إنما تمضي وتسحق الأذلاء تحت قدمها.

هل كل من نعتوا في الدنيا بالسوء كانوا يستحقون كل هذا العقاب؟ فالمجتمع لا يشبه قطيع الأغنام، بمجرد أن يقفز الأول داخل بئر عميقة، فإن بقية القطيع ينساق وراءه بلا تفكير، في النهاية هي حيوانات، تعتبر طليعتها لا تخطئ، في حين أن الإنسان لا بد له من الشك كل حين كي يصحح عمله وفكره، ورغم ذلك فإنه ينساق كالأعمى وراء الآخر! يا للعجب.

أيها الضمير العام، يا مَن تقرعون هذه السيرة، أقسم لكم بتلك المحبة والحب الذي لديكم لوجودكم وسعادتكم، أن تنسوا أنفسكم للحظة، وتروا الدنيا بعيني، وتتفهموا أحاسيسي. ربما يكون ما أتمنى غير معقول! لأنه لو احترقت يدي وتريد أن تشعر بذلك الألم فمن الممكن أن تضع إصبعك في النار، فتشعر بنفس الألم، لكن كيف تستطيعون أن تدركوا حرقة قلبي؟ ربَّ لا يكتب عليكم أن تروا يومًا من هذه الأشهر القليلة من عمري. فهو علاوة على تأثر القلوب بدرجات مختلفة، فإنه سيحرق كل قلب على شاكلته.

لكن على الأقل عندما تعرف قصة حياتي تستطيع أن تقارن بينها وبين القضايا والمصائب المشابهة التي تحل بالآخرين، عندئذ ترى إلى أي حد كان سوء حظي وألمي يفوق قدرة تحمل البشر، وهل ستبرِّئني في النهاية، من ذلك الجرم الفظيع الذي ارتكبته؟

يا لها من جناية مروعة! نعم فقد قتلتُ إنسانًا!... لا تخَف وتلقيَ بالكتاب. على كل حال، لتدع مشقة قراءة كل هذه الحكاية وشأنها، وتقارن بين سعادتك وسواد أيامي، وتترحم شاكرًا لهذه النعمة على روحي.

لو لم يكن ممكنًا أن ترىَ الجراح التي استقرت بروحي، ولا تستطع أن تسمع أنين قلبي، فيمكنك أن تقبل رجائي، بأن تغلق كتاب القانون العبوس المظلم عند الحكم عليَّ، وتفتح كتاب الحق المضيء

ثم تزن أعمالي بميزان الحق والإنصاف. القانون، سطحي لا يرى شيئًا إلا الظاهر، وهو ظالم وقاسٍ، ليس لديه إحساس أو شعور، متعته في قتل العاجز، وهو أمام القوي ساكت حقير، وأمام السذج ظافر منتقم. فالقانون جامد بلا مشاعر، فإذا استطاع مجرم أن يخفي جريمته بالكذب والتملق أو عن طريق جريمة أخرى، فإن القانون سيرفع يده عنه ويطلب له العفو، بل يقوم بجبران ما حدث من متاعب، نفس هذا المجرم لو ندم وتاب، وأقر بذنبه وصدق في أنه لن يرتكب أي جناية أخرى، فإن القانون يغضب عليه ويعاقبه! يقول القانون بصوت منخفض: لو اقترفت جريمة بشعة عمدًا، لن أتكلم. واحذر ألا تسقط مقبوضًا عليك؛ لأنني لا أقبل العذر!... تلك هي العدالة البشرية، وهي أساس معرفة الإنسان المعاصر!

كتاب الحق والإنصاف يستقر بقلوبنا، فارجع إليه. فالنور الذي يشع من ذلك الكتاب يضيء لك أعماق روح المجرم، ويوضح لك حقيقة حاله وكيفيته. فقط وعلى هذا الحال يمكن أن يكون تصرفك معه مطابقا للعدل والإنصاف.

استفتوا قلوبكم في محاكمتي، وأي حكم يصدر من تلك المحكمة سأقبله بالروح والقلب.

* * *

كان دكاني مزارًا للسيدات، وتجارتي لها رونق خاص، بدأتُ برأس مال قدره مائتا تومان، وبعد عامين أصبحتُ صاحب خمسة آلاف تومان. والآن يجب عليَّ أن أكشف السر وأحكي لكم سبب ازدهارها، هذا أمر لا بد منه، وإلا ظلت الحكاية مبهمة. رغم أنني في البداية لم أكن أعرف السبب الحقيقي لمساعدة الحظ لي، كنت أتصور أن أدبي وأخلاقي وصدقي مع العملاء والذوق الراقي عند ترتيب البساط في الصندوق الزجاجي كل هذا يُرغّب الأشخاص فيَّ، لكن لم تكن المسألة هكذا. فالسبب الأصلي لازدهار تجارتي كانت وسامتي. منذ ذلك اليوم الذي أدركتُ فيه هذه النقطة تنبهتُ لنفسي، كنت أدقق في المرآة كل يوم، أقوم بتزيين وجهي وذؤابتي، كنت أبدي اهتمامًا خاصا بحياكة ملابسي. شيئًا فشيئًا أخذتُ حركات وأطوار الحسان، لم أنسَ مطلقًا أنني وسيم، وسيطر هذا الفكر عليَ في كل فعل وقول، حين كنت أدير رأسي بغرور وأنظر إلى الأشخاص بنظرات رزينة، كنت أثق أنني قد أحدثتُ ثورة في قلوبهم، فتنتابني السعادة. حين كنت أبتسم لأحد، أعرف أن حواسه تضطرب ويفتن شعوره بسبب أسناني اللؤلؤية، فتغمرني السعادة، وحين كنت أود أن أعرض نوعًا على المشتري كنت أبين له جمال يدي أكثر، حتى نبرات صوتي كانت تتغير. وبينما كنتُ أراقب أمور هذا الإنسان الجديد بهذه الروح الصغيرة كنت أخجل. لو انتهى أمر نفسي

عند هذا الخجل، كنت أنجو سالمًا مما أطلق عليه الآن اسم البلاء، وكنت أضحك على رعونة أيام الشباب، وينتهي الموضوع عند هذا الحد. جلبت هذه المصيبة بـ"بريچهر" على رأسي، يا له من بلاء عظيم! نبَهتني هي إلى جمالي وقبولي، وعلمتني العشق، ليتني لم أكن جميلاً، ولم أكن مناسبًا لها. لكن الطبيعة لا تعطينا شيئًا دون سبب، فهي تعاقبنا على قبولنا المحافظة على تلك الأمانة فتصيبنا بالآلام المختلفة، ثم تضحك على آلامنا. حفْر بئر تحت قدم الأعمى والسعادة لهلاكه هو مزاح بلا معنى وجائر. خُلِقَت عيني وحاجبي وأنفي وفمي ببعض المليمترات عما للآخرين، الأولى أوسع، والثاني أعلى، والآخر أصغر، وذلك الأخير أضيق، فهل كان هذا ذنبي لأكون أسير كل هذه المصائب؟!

أنا متأكد أن عطاء الطبيعة لي من آلام ومتاعب الجمال يفوق سائر العطايا، وأنها ستندم سريعًا لمنح هذه الرعاية، وستنتقم أشد انتقام. فتلك النظرات المليئة بالمحبة والتي ترعى بها وجود جمالك، تلك الآهات العالية التي تنسحب من صميم القلوب على قارعة طريقك، وتلك الآمال التي تمر بالذكريات من أجل بذل الروح والمال وأنتَ تقرأ ذلك في عين المتفرجين وتزهو بنفسك، كل ذلك العجز والتضرع الذي يظهرونه أمامك، وأخيرًا روح تُزهق تحت قدميك، كل هذه شِباك نُصِبَت في طريقك!

فإذا كنت تتخيل أن ذلك حق مسلم وأبدي لك على الآخـــرين، وتفترض أنك عالٍ وتنظر إلى الآخرين من ذلك الارتفـــاع، فـــسوف تسقط سريعًا! كلما ارتفعت ستعرض كيانك للتعب والتحطيم أكثر. لن يمضِي الوقت كثيرًا حتى تنحسر عنك الأنظار، وتبدو القلـــوب عنـــد مرورك كالحجر، جامدة ولا يتسع البال لوجودك، ولـــم يعـــد أحـــد يضحي بروحه تحت قدميك ثانية، فهذه نوبتك أنـــت. تلـــك القلـــوب المتألمة، الجريحة التي كانت تضع البلسم بيد المحبة، انفضَّت عنـــك وندمت وغضبت لذلك التواضع، وأصبحت هذه القلوب تحقد عليـــك وتنتقم... كم هي تجربة مريرة!

الجمال كالمال والجاه، هي ملابس تغطي وجـــودك، والنـــاس يكرِّمون ويعظِّمون تلك الملابس، في البداية لا تهتم أنت نفسك بهـــذه الملابس، بعد ذلك تضحك من أولئـــك الـــذين يمتـــدحون ملابـــسك، وتحتقرهم.

***

كانت "پريچهر" في البداية تأتي إلى دكاني مع خادمتها، لم أكن أهتمّ بها على الإطلاق، ولم أنظر إليها نظرة خاصة. بعد ذلك حين تزوجنا، كانت تقول: "كم كنتَ باردًا بليدًا، ستة أشهر كاملة وأنا أُلمّح لك ولم تكن تفهم، كانت نظراتي التي أبثها بعشق، تحكي سر العين، كالغزال الشارد ألقيتَ إليَّ نظرة من عينيك الجميلة وانصرفتَ، فسَرَت هذه البرودة إلى روحي، كنت أحيانًا أتصور أنه لا ينبغي أن يكون لتاجر سوقي هذه المشاعر الرقيقة ورموز العشق، فهذه الرقة خاصة بعائلة الأشراف والنبلاء. تمييز الوجاهة يتطلب عينًا مدربة، عندئذ كنت أمل منك وأخجل من نفسي، فلماذا أفتتن أنا بشخص مثلك! كان العشق يسيطر عليَّ، كنت أتخيل أن تفكيرك ورأسك مشغولان بأخرى، الغيرة كالزيت حين يصبونه على النار، كانت نار عشقي تشتعل. جذبني برودك وعدم اهتمامك. لو كنتَ أعلنت لي عن رغبتك من البداية، ما كنت أحبك مطلقًا، أنا أعرف نفسي جيدًا.

أتذكرُ يوم سلمتُك يدي لتغلق الساعة على معصمي، توقعت في كل لحظة أن أشعر بضغط قبلة من شفتيك على يدي، كان جسدي يرتعد، ما أقسى قلبك، أو كم كنتَ جبانًا! فقد كنتُ ألقي عمدًا بالأشياء التي تقدمها لي من بين يدي عدة مرات حتى تخرَ على الأرض تحت قدمي، ورغم أنك انحنيت لرفع تلك الأشياء لكني أفسر هذه الانحناءة وفق رأيي، فكنت سعيدة. كنت أرتعد حينما يذكر اسم دكانك، وكنت

حريصة على معرفة شعور الأهل والأصدقاء تجاهك. إما لسوء الحظ أو حسنه كنت أعتقد دائمًا أن تفكير النساء كله فيك، فكنت أجن ومن كلامي الجميل عنك عُرف أنني أسيرتك، كانوا يلومونني، فأنفجر غضبًا، أنا علي يقين أنهم يحسدونني، لم أكن أسمح لأحد مطلقًا حتى عمتي العزيزة، أن تتحدث معي بشيء عن خطيبي، وكلما كنتَ تتدلل أكثر، أزداد اشمئزازًا من اسمك. أي شخص في مكاني كان سيهرب بسبب كل هذا البرود، أحسنتُ صنعًا حين قاومتُ... أليس كذلك؟".

تلك الفترة كان لـ"پريچهر" معي نوع من المناجاة والأسرار، كنت أطوي أجمل مرحلة عشق، كنت أرى نفسي في جنة الخلد. كنتُ مغرورًا ومعتمدًا على العشق حتى أنني تصورت أن سوء الحظ وتغيير مثل هذه الأحوال لن يجرؤان على المرور ببالي. لماذا لم أمت علي هذا الحال؟! أليس العمر لحظة؟ ماذا كنتُ أنتظر بعد ذلك، وفيمَ كنتُ أطمع؟! أيكون هناك وقت أجمل من لحظة الوصال، أي تلك الدقيقة التي نسمع فيها من المعشوق كلمة "أحبك"؟ فلماذا لا نُنهي حياتنا بعد تلك اللحظة! نتصور أن بقية العمر ستمضي علي هذا الحال؟ يا له منِ خطأ فادح! يا له من وهم طفولي! كل من يحصل على هذه اللحظة السعيدة ولا يلجأ إلى حضن الموت، يصبح أسيرًا في يد جلاد الطبيعة، ويكون كلص الأرواح حين يسرق جوهرة ثمينة، فينال أسوأ عقاب.

صباح يوم جمعة، كنتُ أجلس على أريكة عريضة من المخمل الأحمر الداكن صُنعت بأمر من "پريچهر"، وقد أحضروها صباح ذلك اليوم، بينما كانت جالسة على رجلي تتحدث، وإحدى يديها تداعب شعري والأخرى منشغلة بأزرار ملابسي. قرَّبَت رأسها وشَمَّتْ ذؤابتي، قالت: "حسنًا، يا له من عطر جميل صنعتُه: عشر قطرات من الياسمين، خمس قطرات من زيت السمسم، أربعين قطرة من عطر "القرنفل"، يا له من عطر يحيي الروح! خاصة حين يفوح من ذؤابتك. تتصور أن هؤلاء السيدات يعرفن من أمور العشق أي نوع من اللطف والدلال مثلي؟ فأنا خُلقْت من أجل العشق، آه يا "علي" يا حبيبي كم أحبك! أنا فداؤك. أهذا أنت؟ أخيرًا وقعتَ في شِباكي، صنعتُك كما كنت أتمنى، والآن ترتدي أجمل الثياب، ما أجملك حين تتحدث بغرور، يا لك من واثق الخطى حين تسير بدلال. أتتذكر كم كنتَ خجولاً؟ حقًا كان مضحكًا، أن تخجل مني! كم كنتَ ترتدي ملابس رديئة، لم تكن تهتم بنفسك مطلقًا، حذاؤك كان دائمًا متربًا، وكان جوربك منكمشا رديئ الشكل، صحيح كنتَ تاجرًا صغيرًا، الآن أصبحت شابًا مرتبًا، ليتك كنتَ أطول قليلاً. لكن....... لا.... ليست مشكلة، فكل شيء فيك جميل".

ثم كانت تقول: "انظر كم كنت أحبك حتى أنني تركتُ أبي وأقاربي من أجلك، العشق هو أبي، أضحي بمائة أب فداء شَعْرة

واحدة منك. كانوا يريدون أن يزوجوني من... الملك، يتصورون أني جارية يستطيعون أن يبيعوني أو يهبوني. أمـــي كانـــت أوروبيـــة، والنصيب الأكبر من تربيتي كان في أوروبا، وشعور الحرية ممتزج بدمي! كم هو جميل أن لدي تلك الجرأة والنضج. وإلا حُرِمـــتُ الآن هذه المتعة والسعادة...".

يا ليت كان لي ذكاء حاد أو كانت لي تجربة حتـــى أســـتمتع ببيان هذه الكلمات والأمنيات التي هي من طبيعة وفطرة "پريچهر"!

حقًا يا ليت... لكني كنت مفتونًا بعِشقها، لم أكن أرىَ ســـواها، وكان التفكير السيئ بعيدًا عن فكري فراسخ.

كان وجه "پريچهر" بلون ونضرة بـــرعم الـــوردة الحمـــراء، عيناها واسعة وزرقاء بلون تلك السموات المضيئة التي تظهر بعـــد المطر الشديد، في الربيع ينسى كل قلب لرؤيتهـــا أحزانـــه، وجههـــا مسحوب، رقيقة الحاجب، جدائلها كثيفة مجعدة بلون الذهب، طويلـــة القامة، رشيقة القوام، كأنهم قد خرطوا جسدها مـــن عـــاج، أبـــيض وصلب، لكن العاج أصفر قليلاً، ولا توجد به حمرة...

يداها كانت على قدر من الجمال حتى أن رؤيتها بالنسبة لـــي جديدة كل مرة، هي نفسها تعرف ذلك أيضًا، وتقوم بتزيين الأظـــافر كل يوم فترة من الوقت. أحيانًا كانت تضع يـــديها علـــى المنـــضدة وتنظر إليها بعيون ضاحكة، تقول "علي" أنت لديك يد زوجة جـــديرة

بالرؤية جدًا، هل هناك يد قط بهذا التناسق والجمال؟ انظر، حمرة الأظافر طبيعية". عندئذ كانت تمد تلك اليد ناحيتي ببطء حتى تكون قريبة مني وتضعها على شفتي.

فأخذت يدها التي تعبث بأزراري وقبّلتها، قلتُ: قمري، أنتِ علمتني العشق، وتلطفتِ عليَّ فأدركتُ هدفي في الحياة، ونتيجة التعب والعمل، لقد تزوجنا منذ أكثر من عامين، أستمتع بالحياة وعشقي لك يزداد كل يوم أكثر فتزداد حرقتي. أعرف لماذا أستيقظ مبكرًا ولماذا أحيا. كان هناك أمل يراودني دائمًا وهو محور خيالي، لكن على حد قولك كنتُ خجولاً إلى درجة أنكِ لو لم تبدي لي المحبة، لم أكن أجرؤ مطلقًا لأبديها. في تلك الفترة التي تقولين إنكِ كنتِ تنظرين لي بعشق فتبوحي لي بسر العشق، أقسم لك بحياتك أنني لم أفهم مطلقًا شيئًا من هذه النظرات، فأنا لم أفكر مطلقًا في أي سيدة من اللائي يأتين إلى دكاني، كنتُ مشغولاً بالتجارة، سعادتي مع كتبي، وكنت أعشق بقلب الشعراء الرقيق وكنت سعيدًا. أحيانًا كنت أمزج بين أفكاري والألحان الموسيقية، فأنظم الشعر في خيالي، ولكن لم أكتبه؛ لأنني لم أستطع مطلقًا أن أهذب ما بداخلي هكذا.

بالتأكيد لولا أنتِ ما كنت أنا صاحب نفوذ مطلقًا، لو لم أكن قد عرفتُك، لكان حالي هو أن أقضي العمر في تحصيل العلم والأدب، أعيش حياة بسيطة من المال وعائد التجارة. ثم وجدتكِ وعلمتُ باحتياجاتك، فضحيتُ بخيالي وآمالي فداءً لعشقك، كنت كل يوم

بصدد البحث عن طريق جديد لزيادة رأس المال، لحسن الحظ اشتعلت الحرب أيضًا، وبالأمس حسبتُ ما لدينا فكان مائة وخمسين ألف تومان. فقطعَت "پريچهر" كلامي، وقالت: مائة وخمسون ألف تومان قليلة بالنسبة لجنوني، أتمنى أن أعيش كملكة، أحكم، ويكون الجميع تحت أمري، ألعبُ بقلوب الناس، لا أعرف ماذا أريد. على كل حال ينبغي أن توفر أكثر من ذلك...

فقلتُ بضيق: ألا يكفيك عشقي؟ فضَحِكَت وأخذت رأسي بين يديها وقَبَّلَت وجهي، قالتَ: هنيئًا لك؛ لأن خيالك ليس مثلي مبهمًا ومشتتًا، فأنا أحتاج إلى ألف شيء آخر، غير العشق.

ارتجف قلبي لسماع هذه الجملة، وسيطرت عليَّ حالة من الحزن والندم غير الواضحين، ولم أستطع أن أتكلم مرة أخرى. يا له من بناء غير محكم، بناء سعادتنا الذي يتحطم بكلمة ونظرة! فمرَّ أمام عيني عالم من الأوهام المفزعة والمعقدة على أستار خيالي المظلمة، لكني لم أستطع أن أحدد أي واحدة منها بشكل واضح.

شعرت "پريچهر" بتغير حالي فابتسمت، كانت تحك جدائلها على وجهي ويدي، فهي تعرف أن قلبي معلق بخيوط جدائلها، اطمأنت لتأثير هذا المعشوق، فمن لمس جدائلها لوجهي، وعطرها الجميل حين وصل إلى مشمي، فقدت الوعي. فقلتُ سمعًا وطاعة، التعب والكد ليس صعبًا، أضحي بروحي أيضًا من أجل رضاك.

كأن "پريچهر" قد رقّت لسماع هذا الكلام، غاصت للحظة في التفكر، وقالت بصوت حزين: ليت الله يعطيني قلبًا مثل قلبك.

لم أفهم معنى هذه الأمنية، كنت شابًا عاشقًا، ولستُ شيخًا فيلسوفًا حتى أعرف من معنى جملة، أساس طبيعة الأشخاص. أخذتُ مدح "پريچهر" لنفسي واحتضنتها وقبّلتها قائلاً: خُلقتُ من أجل وجودك أنتِ، فلم هذا الحسد؟ فالإنسان لا يحسد ماله!.

قالت: ما تقوله هو الطفولة، لا تكذب، أتتخيل أن مشاعرك ستظل دائمًا كما هي الآن، لكنك مخطئ، فبمجرد أن تخالف إرادة قلبي رغبتك ذات مرة، عندها ستنسى هذا الكلام. سنرى... .

فتحتُ فمي وعيني كي أنطق وأبرئ ذمتي، فوضَعَت أصابعها البيضاء على فمي، وقالت: لا تتحدث، انهض لنذهب إلى الحمام. وسحبت يدي، وذهبنا إلى الحمام ضاحكين.

لم يكن منزلنا كبيرًا، لكنه من حيث جمال البناء وتميز الموقع والحجرات واتساعها لم يكن له نظير في المدينة.... فقد شُيد بأمر "پريچهر"، حيث اختارته من رسم لمدينة ساحلية بأوروبا، وقد استخدم في بنائه أفضل مواد البناء، أنفقت خمسة وعشرين ألف تومان من أجل هذا البناء الصغير، أما الموبيليا والديكور وسائر اللوازم فكانت أيضًا علي ذوق "پريچهر"، لم أفعل أنا شيئًا إلا تحقيق

رغبتها، كانت سعادتي في طاعتها، وليس في إعداد المنزل والمتاع؛ لأنني طبعًا لا أحب الزينة.

كان لـ"بريچهر" ألاعيب وتقوم ببعض الحيل، وهي لا تعدم الحُجة مطلقًا لكي تأسر قلبي، ولم يقل تعجبي واستحساني ذرة في أي مرة أمام تمثال الجمال هذا. ذلك التناسق في القوام، وحركات الدلال، والنظرات الفاتنة التي لا يمكن شرحها، خسارة أنني لست رسامًا.

حقًا، لماذا يرسم الفنانون فقط الوجه الجميل والمناظر الآسرة وليس شيئًا آخر؟! وظيفة الفن هي كشف عظمة وروعة الطبيعة، بمعنى أن الفن يصور ما لا نراه في لوحات تعكس كل ما هو طيب وجميل في هذا العالم، والتي تمر أمام أعيننا بسرعة، وينبغي أن يحافظ الفن على هذه التجليات العابرة من أجلنا، وإلا فلماذا يبقى القبح الذي نراه أيضًا كموضوع للفن؟!

لماذا أستطيع أن أستحضر "بريچهر" للذاكرة ولا يتوقف قلبي عن العمل؟ رأسي تغلي، وحلقي قبض أيضًا حتى كدتُ أختنق، لِم لا أستطيع أن أبكي؟!

نعم فأنا مجبورٌ أن أنقل لمحة من هذه الخواطر للقارئ حتى أبرئ ذمتي. رغم أن روحي تخرج مع كل كلمة من سن القلم! غير أني سأكون راضيًا لو تمكنت من أن أحكي واحدًا من ألف من مصائبي وآلامي.

***

لا يحل الصديق محل المعشوقة، ولا تحل المعشوقة محل الصديق. فمعالجة آلام هذه الروح المتعبة يتم لنا بالمزج بين العشق والصداقة، فكلاهما جناحان يطلقان روحنا من سجن الأماني ويوصلانا إلى الهدف، واحد منهما دون الآخر، لا يعد كاملاً.

في البداية كانت نار عشقنا تجعلنا لا نحتاج إلى أمنية أخرى، لكن لسوء الحظ، سرعان ما تنطفئ هذه النار، ونشعر أننا بحاجة إلى الصداقة مرة أخرى.

حين كان لحن الروحين لحنًا واحدًا، كان في كل مرة يتشابه شكل الروحين فتتولد الصداقة، حتى لو كانت العقائد مختلفة؛ لأن العقيدة غطاء وقابلة للتغير حين تُغطى بأرواحنا.

حين تجد العين، الوجه الجميل والقامة الرشيقة التي توافق رسم الأمل، تشق طريقها إلي القلب، فيتولد العشق. الصداقة تستقر في الروح عن طريق الأذن، والعشق يغزو القلب عن طريق العين. الصداقة شيءٌ معنويٌ، والعشق مادي. إذا وجدت العشق والصداقة معًا في شخصٍ، يعني لو كان المعشوق صديقًا أيضًا، فاغلق العين عن كل شيء بعد ذلك، ودع شأن الدنيا لأهل الدنيا...

لسوء الحظ لم تكن "پريچهر" متفقة معي في التفكير، فهي كانت تهتم بالأشياء المادية أكثر، كان حديثها كله عن تزيين المنزل أو لون الملابس وطريقة عقد الجديلة، وحينما ينتهي حديثها، كانت تلعب معي، كطفل لديه لعبة. لم أستطع مطلقًا أن أقرأ معها صفحة

كتاب واحدة، أو يدور بيننا حوار بعيدًا عن الماديات. ضحيت بعشقي لقراءة الكتب من أجلها. لكن لحسن الحظ، عاد صديقي العزيز "فريدون" من فرنسا، بعد ثمانية عشر شهرًا من زواجنا. فضلاً عن تقديري له، فمن خلال لقاءين ثلاثة، رأيتُ أنه يحمل كنزًا من المعرفة والعلم، وأوصلته طيبته وأصالته الذاتية إلى حد الكمال نتيجة العلم والتجربة. ففُتِنتُ به، وأصبحت صداقتنا أكثر دفئًا وحرارة مما كانت عليه من قبل.

ماذا أتمنى من الله غير ذلك؟ فموضوع العشق والصداقة اللذان كانا غاية ما أتمنى، كنت قد ثملتُ وانغمرت شوقًا بوجود "بريچهر" و"فريدون". كنت أتصور أنهما أركان عظيمة لهذا العالم، وأنني سأتكئ عليهما، ولن تنالني أبدًا يد الزمان الغادرة. بعدها كنت دائمًا أتعجب، لماذا لم أتصور آنذاك وفي هذه الأوقات السعيدة، أنه ربما تتقطع هذه الأواصر التي تربطني بهذين الوجودين يومًا ما.

نحن طائر يحلق عاليًا والطبيعة كالطفل حين تقيد إحدى قدميه، بلا رحمة ولا إحساس، فهو يحلق في كل مكان، فإما نصل إلى أهدافنا أو لا نصل، وحين يُجَن طفل الطبيعة، ذلك المقيد المنحوس، ندرك أننا متعبون وعجزه، ننسى ألف مرة أخرى ذلك القيد، ونحلق فندرك مرة أخرى، فلماذا إذن نذهب وراء أهدافنا مرة أخرى؟

***

كان "فريدون" طويل القامة، رشيق القد، وسيمًا، لكن لا بد أولاً أن تعلموا منذ متى وأين، ونحن أصدقاء: ولدتُ في "تبريز"، والدي تاجر وليس له نصيب من المعارف الحديثة، لذلك كان يعاني كثيرًا، لهذا أبعدني عنه في سن العاشرة، وأرسلني إلى "طهران" عند عمي، حتى أتعلم الجغرافيا والحساب -على حد قوله- وأستطيع أن أرفع اسمه من بعده. ذهبتُ إلى المدرسة في "طهران"، وتعلمتُ القراءة سريعًا، لكني لم أستطع أن أتحدث الفارسية بطلاقة، فكنت أُعد الجمل في ذهني أولاً ثم أقولها. كانت العبارات المكتوبة باللهجة التركية تثير ضحك الأطفال، كانوا يضحكون فأتضايق ويحمرُّ ويصفرُّ وجهي، كنت أرتعش وأهددهم، وأحيانًا كان الأمر يتطور إلى الضرب أيضًا. ذات يوم لكمتُ أحد الأطفال، والذي كان يكبرني، على فمه، وتشابكنا معًا، جاء الجميع لمساعدته، وانهالوا على رأسي، أنا أيضًا كنت أضرب برجولة وأصيبهم، كدت أهوي على الأرض حين رأيتُ "فريدون" يتدخل لمساعدتي، فكان يلكم ويصفع في كل ناحية، فغلى دمي وتشجّعتُ، واقتلعتُ قطعة طوب من جانب الحديقة وألقيتها، فأصابت جبهة أحد الأطفال، وسال الدم، نشبت معركة.

جاء المسئولون بالمدرسة وأخمدوا الفتنة، وانشغلوا بالتحقيق، نسب البعض إلقاء الطوب إليَّ وبعضهم نسبه إلى "فريدون". كان لساني قد انعقد بعد ذلك الضرب المبرح وخوفًا من العقاب. مع أنني

كنتَ أصرخ في داخلي أنني أنا الذي ألقيتُ الطوب، لكن صوتي لم يخرج. مرضتُ عدة أيام، حين رجعتُ إلى المدرسة مرة أخرى، علمت أن تهمة إلقاء الطوب والإصابة قد لحقت بـ"فريدون" وعوقب، لم أستطع أن أتمالك نفسي لسماع هذا الخبر أو أن أشرح، كنت أخاف من علو همة وعظمة "فريدون"، وقد تضاءلتُ وخجلتُ، مهما فعلتُ لا أستطيع أن أقترب منه أو أتحدث إليه، لم أكن أعرف ماذا أقول. رأيتُ في الحلم أنني خلّصتُ "فريدون" من حيوانات مفترسة وأماكن مخيفة، وضحيتُ بروحي فداءً له، كنت في الحلم أعطي كل ما أملك من نقود وكتب وأمتعة إلى "فريدون".

ذات يوم كتبتُ ورقة وسلمتها له في يده: وقد كتبتُ فيها:

"فريدون خان، لماذا أخذتَ ذنبي على عاتقك؟ أنا حزين ليلاً ونهارًا مما فعلتَ، قل لي: كيف أعوضك ما حدث؟".

فأخذ "فريدون" بيدي وضغط عليها، وقال: "أنتَ أخي، ولا داع للعوض"، لكنني ذهبتُ إلى مسؤول المدرسة باكيًا، وحكيتُ له ما حدث بالتفصيل، فكنت أنا وهو مَضرِب المثل في الصدق والتضحية، وكنا محبوبين من الجميع.

"فريدون" كان يكبرني بخمسة أعوام، فهو آنذاك كان في السادسة عشرة من عمره، وأنا في الحادية عشرة، بعد أربعة أعوام،

أرسله والده إلى "فرنسا" لدراسة العسكرية. كان "فريدون" في خطاباته لي يشوِّقني للذهاب إلى أوروبا حتى سلَّم عمي في النهاية لتوسلاتي ورجائي، وأخذ الإذن من أبي، وأرسلني إلى "لندن"؛ لأنني كنت قد تعلمت الإنجليزية في المدرسة، أقمتُ في "إنجلترا" ثلاثة أعوام، ثم تُوفِيَ والدي فاضطُررتُ للعودة. ولأنني كنت أعرف أن الحرية هي أول شرط ضروري للحياة، فلم ألتحق بالوظيفة الحكومية، مارستُ التجارة بعد أن أخذتُ من عمي مائتي تومان رأس مال، كان عمري وقتها عشرين عامًا. بعد عامين تعرَّفتُ على "پريچهر"، وتزوجنا بعد سبعة شهور، كانت هي أصغر مني بعامين.

التحق "فريدون" بقوات حرس الحدود، وكانت له منزلة وقدر عند كبار الضباط السويديين، كان يرتدي ملابس على قدر من الأناقة، حتى إن العيون كانت تتعلق به حين يمشي في الشارع. ولأنه كان قد حصل على الشهادات العسكرية من "فرنسا"، فقد عُيِّنَ على درجة نائب أول، وخلال عام أصبح نقيبًا، لكن نفسه ظلت متواضعة رغم هذا الترقي والسمو. ولم يعرف داء الكبر والغرور طريقه إليه مطلقًا، كان متميزًا بالفطرة، ولم تتدخل العوامل الظاهرية في شخصيته واستقلاله الذاتي، كان متواضعًا رحيمًا في الظاهر، لكنه مليءٌ بالعزة والكبرياء في داخله، معه الحق أن يصبح مغرورًا لأنه كان غنيًّا بالمبادئ الأخلاقية الثابتة التي لا تتغير في أي مكان ولا

لأي سبب. فكان صلبًا محكمًا كبنيان الطبيعة، غنيا عن المــدح، ولا يخشى من القدح.

كان يأتي إلى دكاني مرة أو مرتين أسبوعيًا، يجلس طــويلاً، ويطلب مني ترتيب وتزيين الدكان، حتى أنــه كــان أحيانــا يرتــب البضائع بيده.

كانت إحدى متاعبي اليومية هو أنني أرى كل يوم أنني أبتعــد عن أمنيتي بأن أكافئ "فريدون" لعظمته وطيبته بما يــستحق، ولأنــه أفضل مني من كل النواحي، لم أتصورَّ مطلقًا أن يأتي وقت أســتطيع فيه أن أقدم له خدمة. كان "فريدون" لحسن الحظ ذا منصب رفيع، لم يكن له في جمع المال، وبالصدفة فإن والده أيضًا من أسرة عريقــة، ولأن دخله ونفقاته لم تكن منظمة، فإنه كان يفقد كــل يــومٍ بعــض ممتلكاته.

قلب نشوبُ الحرب الوضعَ، وبدَت لي بارقة أمل، في الأشهر الأولى، وبناءً على توقع "فريدون" بأن الحرب ســتطول، اشــتريتُ وبعتُ عدة مرات وربحتُ كثيرًا، كنتُ مترصدًا لأجد طريقًــا لتقــديم خدمة إلى "فريدون"، لكنه لم يكن أمرًا سهلاً؛ لأنه يعلــم بمتطلبــاتي المتزايدة ، فلم يقبل مني مطلقًا بعض الأشياء كهدية أو مجاملة، فكنت أنا أيضًا أخدعه وأقول له قيمة الصنف بأقل من ثمنه.

كان على علم بموضوع معرفتي وزواجي من "پريچهر" والسعادة والآلام التي أعانيها جيدًا. بمعنى أنني لم أكن أخفِي شيئًا من حياتي عنه، لكن كالعادة كنت لا أطلعه على ضميري، ولم أعرّفه على "پريچهر". تحدث معي أكثر من مرة عن العشق والمحبة وعفة المرأة وذلك على خلاف المعتاد؛ لأنه كان لا يتحدث معي إلا عن السياسة والعلوم ، وكان يسألني عن رأيي في هذا الموضوع، لم أفهم في ذلك الوقت، ما وراء هذا الكلام من معنًى خاص، لكن بعدها كانت تمر ببالي هذه الجزئيات وتفاصيل ذلك اليوم، وكنت أدقق في معنى كل واحدة من عبارات وكلمات "فريدون"، حتى أدركتُ الحقيقة في النهاية وعرفتُ هدفه الذي كان بعيدًا... خاصة إصراره على أن أنهي حبي وثقتي بـ"پريچهر"، لكنه كان يُغَلف هدفه هذا في لفافة، بحيث كان إدراك ذلك صعبًا عليَّ في ذلك الحين. فعشق "پريچهر" كان قد امترج بروحي، ولم يستطع أي تفكير أن يفصل بيني وبين عشقي.

ذات يوم كان يقول: "أنا أفكر بطريقة غيرك؛ لأنك تقول لو لم تكن "پريچهر" وفيَّة في يوم من الأيام، فإنك سترحل عن الدنيا. أنا لو كانت لدي زوجة أعرف أنها لا تحبني وتخونني، أنهي علاقتي ومحبتي وعشقي لها في الحال".

أحيانًا أخرى كان يقول: "المرأة التي تهرب من منزل أبيها وتضحي بكل شيءٍ من أجل العشق، ليست جديرة بالثقة؛ لأنها ليس لها أي مبادئ أخرى إلا العشق، وعندما تخبو نار العشق تدريجيًا، تصبح كالطائر حين يتحرر من القفص يذهب بلا عودة". كانت هذه الفلسفة تشبه قصتي مع "پريچهر"، اضطرب حالي، امتقع لوني، وقلت بشيءٍ من الحدة: بالتأكيد هذا منطق صحيح، لكن لا ينطبق على كل الأحوال، علاوة على أن عشقي يزداد كل يومٍ لـ"پريچهر"، وليس هناك دليل على أن محبتها لي ستنحصر. فكر "فريدون" وقال: "تسبب كلامي لك دون مبرر، فأنا أقر حقيقة ضمن حديثي، لكنني لا أقصدك". ولم يتحدث معي ثانية عن هذه المقولة، لا بد أنه فهم أن ذهني غير مستعد لأن يتصورّ الخيانة من"پريچهر".

بعد عدة أيام، سألني "فريدون": هل أنت واثق من صداقتي وصدقي؟ فقلت: أتمنى أن يكون لي مائة لسان حتى أعدد أفضالك. قال: ما دام الأمر هكذا، فلماذا لا تسمح لي بالتداخل وتخفي زوجتك عني؟ رغم أن هذا أمر طبقًا للعادات والتقاليد، راسخ في عقلي منذ الطفولة، إلا أن صداقتي وثقتي اللانهائية بالنسبة لـ "فريدون" تغلبت على كل مشاعري، فقلت دون تفكير: "پريچهر" أيضًا لا ترفض مقابلتك، لكن التقصير في هذا الموضوع مني، الليلة نذهب معًا إلى المنزل، ونتناول العشاء.

بعدها، كان "فريدون" غالبًا ما يأتي إلى منزلنا، أو نذهب نحن إلى منزله، نجتمع مع السيدة "رسا" والدته، وأخته "گلــچهره" جمعًــا سعيدًا. كان "فريدون" يعرف ألف طريقة ووسيلة للتسلية، كان يحكي القصص ويمزح. يا له من زمن سعيد مرَّ عليَّ، كم كانــت ســعادة كاملة!. لكن، ما الفائدة؟ فأنا أتجرع الآن ألوانًا من العذاب مقابل هذه السعادة التي عشتها. من الأفعال العظيمة للطبيعة هذه الخاطرة، أنهــا تحشد لنزع روحنا، فتُظهر النعمة المسلوبة من أيدينا تحت المجهــر، فتبدو أكبر وأنقى وأصفى آلاف المرات، وتحرق وجودنــا تــدريجيًا بنار الحرمان طوال العمر.

بعد ذلك حين طابقتُ الأحداث ببعضها، رأيت أنه قبل مخالطة "فريدون" كانت نار "پريچهر" قد هدأت بعض الشيء، فلم يعد لها ذلك الاندلاع السابق، فقليلاً ما كنت أسمع منها كلمات الرضــا، أو تلــك الضحكات الطويلة السعيدة. لم أتأثر لهذا التغيير؛ لأن القــدر البــاقي يعد زائدًا وذلك حسب طبيعتي، مثلاً كانت تأتي إلى الدكان كل يــوم تقريبًا، تجلس فترة في صندرة الدكان وتقول: أنا آتي لمراقبتك حتــى لا تغمز للنساء. بعدها، لم تعد تأتِ إلى الدكان إلا مرة أو مــرتين لا أكثر كل أسبوع، ولم تكن تبدي غيرة مطلقًا، فظننتُ أنها وثقت بــي، فكنت سعيدًا.

بعد ثلاثة أربعة أشهر مــن مخالطــة "فريــدون"، أصــبحت "پريچهر" أكثر سعادة معي، لكن معاملتها لي اختلفــت عــن ســابق

عهدها، فكانت تحترمني وتنصت لكلامي، بعد أن كانت تستهزئ بـه وتضحك منه، كانت أحيانًا تتحدث عن الوفاء والعفة، وواجب كل من الرجل والمرأة، فلم أتعجب لأنه من الواضح أن هذه الأفكار الجديدة، نتيجة المخالطة مع "فريدون"، فقد أثَّرت روحه الطيبة والعظيمة فـي "پريچهر". كنت أشكر "فريدون" وأقَبِّل يـد وقـدم "پريچهر"؛ لأنني وجدتُ تقريبًا أن معشوقتي أصبحت صديقتي وتوأم تفكيري.

لو كنت أستطيع أن أرى أنني قد وصلت إلـى نقطـة نهايـة طريق محفوف بالمخاطر، وأنه بعد خطوة واحدة، هناك هوة سـحيقة ينهار قلب الأسد لرؤيتها، وليس هناك أمل في النجاة منهـا، لكنـت توقفتُ ولم أتقدم بعد ذلك، لكن ماذا يمكن أن نفعل فقد خُلِقنا عِميانًا.

تُوفِّيَ والد "فريدون"، وأصبح هو عائل الأسرة جميعها، وسقط متعبًا، فانتهزتُ الفرصة، وقلت: إذا أصبحت شريكًا فعليًّا لـي فـي شئون التجارة، فإنك ستصبح صاحب ثروة سريعًا وسـترتاح. أردتُ أن أقول أمنحك قرضًا لكنني لم أجرؤ. بعد عدة أيام أتى بألفي تومان وأعطاها لي، قال: لك حرية التصرف في هذه النقود.

لم يمضِ يومان ثلاثة، وكانت أموال "فريدون" لم تنفـق بعـد، حتى وصلتني أرباح قدر من الأموال كنتُ قد أودعته منذ عامٍ ونصف في أوروبا، وقد ربحَتْ ما يعادل خمسة أضعاف قيمته، وفـي خيـالي أشركتُ "فريدون" في هذا العمل، وقررتُ منحه عشرة آلاف تومان.

بعد عشرين يومًا، كنت أجلس ذات صباح في الدكان، فأخرجتُ بعض صكوك البنك من درج المكتب، كان قلبي يخفق من الوجد ويدي ترتعش. ثم كتبتُ شيكًا بمبلغ عشرة آلاف تومان باسم "فريدون"، وكأنهم قد أزاحوا حِملاً ثقيلاً من على كتفي، تنفستُ الصعداء وابتسمتُ، رأيت أنني صنو "فريدون" بل أعظم، تذكرتُ أنه تحمَّل ألم العقاب من أجلي لبضع دقائق في الطفولة، وأنا اليوم أهب له عشرة آلاف تومان، ولستُ مجبرًا على ذلك مطلقًا! صحيح أنني أعظم منه، تخلَّصتُ من ألم الإحسان، آه.. كم هو ثقيل عبء الإحسان!.

لكنني لحسن الحظ تنبَّهتُ سريعًا إلى وجود نزغ للشيطان في نفسي، فقلت لنفسي: لقد تحمَّل "فريدون" دون سبب أو ضرورة الألم البدني والنفسي في الطفولة، التي هي أصل الحياة والأنانية، فقد نسي نفسه وحيثيته وضحى بكل شيءٍ في مقابل لا شيء مني، وأنا الآن أمنحه جزءًا صغيرًا مما أملك مقابل هذه التضحية، كل ذلك جزاءً وعوضًا حتى أنجو من حمل الإحسان، فلماذا أزهو وأتباهى بنفسي كل هذا؟! فخجلتُ وأقررتُ بأنني ضئيلٌ جدًا عنه.

حملتُ الحوالة وذهبتُ إلى منزل "فريدون". كنت أفكر أثناء الطريق ألا أعطيه فرصة للسؤال، وألا أدعه يسأل أية نقود هذه التي تربح كل هذا وبهذه السرعة؟! توصّل عقلي إلى أن أقول له:

"فريدون" أنت محظوظ للغاية! ينبغي أن أشركك معي في كل عملية بعد ذلك وأستفيد من حسن طالعك. يتصورون بلا مبرر أن الحظ مغمض العين؛ لأنه أحيانًا يحالف أحد الأشخاص طوال الوقت ويساعده حيثما حل، وأحيانًا أخرى لا يسير خطوة واحدة مع آخر، وجود ذا تأثير كهذا لا يمكن أن يكون أعمى!

تأكدت أنني شُغِلتُ طويلاً بفلسفة الحظ، وكاد موضوع عشرة الآلاف تومان الأرباح أن يُنسى.

وصلتُ إلى منزل "فريدون" بهذه الأفكار، كان الباب مفتوحًا: دخلتُ الفناء وذهبتُ إلى حجرة الضيوف، لم يكن بها أحد، ضغطتُ على جرس الباب حتى يأتي أحد من الداخل وأسأله أين "فريدون"، أقول له لماذا تتركون باب المنزل مفتوحًا! فوقعت عيني على مروحة جميلة على المنضدة. لسوء الحظ تحرك داخلي حسٌّ التجارة واقتربتُ، فرأيتُ أنها تشبه المروحة التي اشتريتها لـ"پريچهر" منذ يومين، فاجتهدتُ حتى أتذكر لأي سيدة منهن بعتُ هذه المروحة، كأنني أمسكت بمعصم "فريدون". أثناء هذا الفكر، قربتُ المروحة إلى وجهي، ففاح عطر "پريچهر" منها! فمرَّ ببالي أنها كانت تتحدث في التليفون ليلة أمس حين جئتُ إلى المنزل، فاضطربَت لمجيئي وقطعت الكلام. سألتها مع من كنت تتحدثين؟ قالت: "فرنگيس" ابنة عمي، تدعوني لضيافة غدًا، أصرَّت كثيرًا حتى وافقتُ مضطرة؛ لأنني لا

أحب هذه الحفلات، خاصة أنني أُفَضّل ألا أخرج غدًا من المنزل، وأقوم بعملي".

اضطربتُ لهذا التفكير ولكي أتحرك، مشيتُ ناحية حجرة السفرة، ومنها دخلتُ إلى حجرة المكتب، فرأيتُ "پريچهر" و"فريدون" وقد جلسوا على الأريكة! فصرخَت "پريچهر" صرخة صغيرة، وكان "فريدون" ينظر إليّ كأنه تمثال.

لم أر أو أسمع شيئًا بعد ذلك، أُسدل ستار على عيني، والأجراس كانت تدق في أذني، رأسي أصابه الدوار، فاتّكأت على الحائط ولا أعرف كم استمرت هذه الحالة. اقترب مني "فريدون" وقال: "علي"، أقسم لك بشرف الصداقة أنها ليست خيانة، وأن هذا اللقاء كان من أجلك.

ضحكتُ ضحكة عصبية عالية، وقلتُ: كلمة الشرف من فم إنسان عديم الشرف، مضحكة جدًا! فسقط "فريدون" على الكرسي وأمسك رأسه بين يديه، واقتربَت "پريچهر" مني، دون أدنى تغيير يبدو عليها، وقالت: "علي حبيبي، "فريدون" بريء، الذنب ذنبي أنا".

هذا الاعتراف، أشعل النار بروحي، كنت أتمنى أن يكون "فريدون" على الأقل هو المقصر وليست هي. فأبعدتها عني، وقلتُ: أنتِ عديمة الشرف أكثر منه، أنتما الاثنان كلاكما خُلقَ للآخر.

ولكي أسحق "فريدون" تحت نير الخجل، ألقيتُ بصك البنك على المنضدة وخرجتُ.

***

مشيتُ كالمجانين، بلا هدف ولا فكر، أحيانًا كنت أمشي بسرعة وأحيانًا ببطء، رأيتُ فجأة أن سيارة تأتي مسرعة من بعيد، فألقيتُ بنفسي وسط الشارع، وأحسستُ أن السيارة قد مرَّت فوقي ومزقَّت جسدي، و"فريدون" و"پريچهر" يرياننى على هذه الحالة بالمستشفى، وأنا أنظر إليهما نظرة ذات معنى وأسلم الروح، فيحترق قلبهما...

كان تخيل تصادم السيارة بي من الخلف، كأنه توقع لجزاء أستحقه، كنت أسمع صوت بوق السيارة، لكن كأنه يخبر "فريدون" و"پريچهر" للفرجة، للأسف كان السائق ماهرًا، فمرَّ بجواري مع بعض الشتائم وما لا يليق، وخرجتُ أنا سالمًا من هذه الحادثة.

كانت الشمس في عيني بلا بريق، وكنت أرى الدنيا خالية، كما كنت أتصور أنه لم يعد لدي ما يستحق الحياة. أتعجب لذهاب الأشخاص وإيابهم، أرى حركاتهم باردة وبلا معنى. كان هناك شابان يسيران أمامي بتأنٍ يتحدثان معًا، وأحيانًا يضحكان. فمر ببالي أن هذين المسكينين لا بد أن كلاً منهما يحب الآخر، تأثرت لهذه

المغالطة، ومررت بالقوة من بينهما، كأنني كنت أريد بهذا العمل أن أمحو خطأ من بينهما، وأقطع أواصر هذه الصداقة الكاذبة والخادعة.

تنبهت فجأة أنني قد وصلت قرب الدكان، فارتعد جسمي، اضطربت بسبب هجوم الذكريات، وأُسدِلَت ستارة سوداء على عيني فرأيتُ نفسي أمام منظر مفزع، أدرتُ وجهي وتوجهت لا إراديًا ناحية السوق. كانت النساء تبدو في عيني كالهيولي المفزع، كنت أتصوَّرهن شياطين تحت تلك العباءة السوداء المفزعة، يُسَخِّرن الإنسان المسكين بنظراتٍ ساحرة، ويسحبْنه إلى دوامة الهلاك، فكنتُ أتجنب الاقتراب منهن.

مرَّ بجانبي ضابط طويل القامة وكان شبيهًا بـ"فريدون"، فتبدّل فكري، ورأيتُ أن المرأة وجودها ضروري ومفيد، تخيَّلتُ أن هذه الشياطين قد ظهرت في شكل رجال نتيجة أعمالهم القبيحة، ولم يستطع أحد أن يمنح النقاب إلا تلك الشياطين! كنت أقول للمارة من رجلٍ أو امرأةٍ في خيالي: اذهبوا وأسرعوا، فالفسق والمتعة الخفية في انتظاركم، اذهبوا وكلما أسرعتم أشقيتم بعضكم بعضًا! فالمتعة البريئة أي العشق الكامل، ليس من نصيب البشر، ما لم يكن في الأمر معصية وألم وسوء حظ، فلن ترضى الروح المريضة والمجنونة للإنسان! في تلك الأحوال، كنت أتمنى الشقاء للجميع من صميم قلبي، وأحصي أسلاك التليفونات المعلقة في الهواء وأسعد

لكثرتها، وأرى أنها شريكٌ في المعصية ووسيلة شقاء البشر. كنت أسمع "پريچهر" و"فريدون" يقول كل منهم للآخر: غدًا الساعة العاشرة عندما يخرج، أحلق كطائر فر من القفص، وألقي بنفسي بين أحضانك، أنا فداؤك...

فأسرعتُ الخطى، ووصلتُ إلى السوق، واشتريتُ مسدَّسًا!

***

فكرة القتل، لم تخطر ببالي طوال حياتي قط، ولم أكن أستطع أن أرى طائرًا يُذبح، وكنت أغضب من زملائي في المدرسة حين يهاجمون العشق، ودائمًا أتعارك معهم. لم أكن أعتبر القتل لأي سبب، وفي أي مكان، مفيدًا أو ضروريًا، وأومن أنه حينما تُرتكب جريمة القتل في أي مكان وأي وقت، تكون الحيوانية والوحشية قد تغلَّبت على العقل والمنطق. عندما ذهبتُ إلى السوق واشتريتُ المسدس، لم أكن أنا، بل هو وجودي الحيواني.

فجأة أفقتُ عندما وضعت المسدس الثقيل في جيبي، تزلزلتُ وكأنني استيقظتُ من النوم، أدركت غايتي، وعرفت إلى أين أذهب، وماذا أريد أن أفعل! تحسستُ المسدس فارتعشت لبرودة الحديد، تحطَّمت أعصابي، استقر العرق البارد على جسمي، كان قلبي يدق، أنظر إلى المارَّة بعجزٍ وضعفٍ، ودموعي تسيل بداخلي. كنت أتمنى

أن يأخذوا مني المسدس ويدركوا أوجاع قلبي. فيبكوا على عجـزي، توقعت أن يعيدوا لي "پريچهر"، كما كانت في البداية، وأن يطهـروا روح " فريدون" الملوَّثة مرة أخرى، تمنيتُ أن يمحوا المنظر المزعج لمجلس الصباح من ذهني، وأن ينزعوا تلك الـصفحة الداميـة مـن ذاكرتي، ويطووا الجزء الخاص بـاليوم مـن طومـار حيـاتي، أو يعطوني النصيحة، ويعملوا بنصيحتي بشرط أن يعطوني قـوة تنفيـذ تلك النصيحة والموعظة... لا أعرف، افعلوا شيئًا حتى تهـدأ ثـورة قلبي واضطرابه، وتعيدوا الحياة مرة أخرى لروحـي التـي جفَّـت كالوردة المحترقة. لو أن تحقيق أيٍّ من هذه الأمنيات لـيس ممكنًـا، فخذوا روحي وخلصوني من هذا البلاء. فأنـا فـي النهايـة أتطلـع لصداقة بني جنسي، يقولون إننا أعضاء جسد واحد، فلماذا لا يـشعر أحد بآلامي؟... آه، كم هؤلاء الناس بلا رحمة، كم قلوبهم قاسـية، لا أحد يهتم بي، ينظرون لي لكن لا يرونني، كل منهم في فكره، كـأن وجودي لا يستحق الاهتمام، وخفقان قلبي ليس له أثر أكثر من رعشة جناح بعوضة!

رأيتُ أنني في غابة وقطيع من حيوانات بني جنسي يتحـرك في كل اتجاه، لكنهم دون مشاعر أو إحساس! رأيتُ نفـسي غريبًـا ووحيدًا، كنت أتمنى أن أصرخ، كدتُ أُجن تقريبًا!...

أليست لديكم رغبة قط أن تنظروا، وتشاهدوا ما وراء تلك المناظر الهادئة الساكنة من اضطراب وتشتت الذهن، لمن يسيرون حولكم؟ ألم تدققوا النظر مطلقًا في عمق عيون الأشخاص الذين يبدون في الظاهر، في راحة وسعادة وموضع عناية السعد والإقبال؟ لو يرفع عنا شعور التكبر، ونضع أنفسنا مكان الآخرين فندرك آلامهم، ننسى آلامنا ومصيبتنا ونصبح سعداء.

***

نزلتُ من العربة على بُعد خطوات من منزل "فريدون"، مشيتُ بخطوات ثابتة حتى باب المنزل، كنت أود أن أدخل بنفس الخُطى لكن قلبي كان يدق بشدة حتى كاد أن يغشى عليَ، كان رأسي يغلي. أخرجتُ المسدس من جيبي بصعوبة وطلبتُ المدد من صفة الرجولة، صعدتُ درجات سلم العمارة. خرج "حسن" الخادم من مكان عمل القهوة، وقال: سيدي لم يأتِ بعد. كنا قرب الظهر، فتأكدتُ أن "فريدون" بُالمنزل ويخفونه عني. نزلتُ من السلم دون أن أتكلم، ومشيتُ إلى الداخل ناحية حجرة النوم. ولكي أصل إلى هدفي أسرع، مررتُ من الحديقة، مطأطئ الرأس ولا أنظر إلى الأركان. عندما خرجتُ من الحديقة سمعتُ صوت والدة "فريدون" تقول: أستاذ "علي خان"، لا ينبغي أن تركل زهورنا هكذا، هذه الورود هي روحي.

انقَلَبَ حالي، برؤية السيدة "رسا" بتلك الابتسامة الدائمة والنظرة الحانية، تذكَّرتُ أنها كانت تناديني بابنها، وأنا أيضًا أناديها بأمي الحبيبة. كل هذه الذكريات الجميلة قامت بالوساطة، لا أعرف ماذا سألتُ، حتى قالت "فريدون" لم يأتِ بعد، لماذا أنت مضطرب؟ هل حَدَثَ مكروه؟ هل حدث لـ"فريدون" شيء؟ تكلَّم بالله عليك، تكلَّم! كان صوتها يعلو أكثر في كل جملة وتزداد عينيها غضبًا واضطرابًا.

أردتُ أن أُجيب، فقبض حلقي حتى أنني لو نطقت بكلمة واحدة لانهمرت دموع عيني. فأشرتُ لها بيدي وخرجتُ من المنزل بسرعة، ذهبت حتى لا يدخل "فريدون" لا قدر الله من الباب، تجسد أمام عيني جسده الدامي وقد جذبته أمه بين أحضانها... ففررتُ، كنتُ أسرع الخُطى بقدر ما أستطيع، وأجري بكل سرعة. خرجتُ من المدينة وكان الماء يتساقط من عيني ووجهي لاإراديًا، كالوعاء حين يمتلئ بالماء. كنت أسير فتوجهتُ نحو الصحراء، لا أفكر، فهمتُ إلى أي حد انقطع قلبي عن كل أمل، فأنا بلا مأوى وعاجز، أئن باكيًا، لا أتذكر ماذا كنت أقول ومم أشكو. لا أعرف كم ساعة مرَّت على هذا الحال، وقد سقطتُ صريعًا على حجر. بالتدريج كانت قطع الخيال في ذهني، تتواصل: تذكرتُ ماذا أصابني، اصطدمتُ بحقيقة حالي، وكان قلبي يحترق لحالي. لقد تجسد أمام عيني كل ما واجهته في الحياة من شدائد، وكل ما سمعته من مصائب مشهورة.

رأيتُ "نابليون" حين فقد عرش الدنيا، ثم يذهب إلى السجن وهو يضحك، لكن حين تُسلب زوجته من بين يديه، وتأخذ ابنه منه، يتحطم قلبه ويبكي. لم تضعف إرادته عندما خسر عرش الدنيا، ولم تسعد الطبيعة بسماع شكواه وحزنه، لكنه يحتضر بسبب خيانة زوجته له، ويُهزم.

تذكرت حكاية الإمبراطور الرومي الذي قُتِلَ على يد الشخص الذي اتخذه ابنًا له، وكان قد تربَّى في كنفه. حاولتُ أن أشعر بما شعر به حين رأى خنجر "بروتوس" فوق رأسه وقال له: حتى أنت يا "بروتوس"؟! كيف مرَّت عليه، وماذا دار بفكره في تلك اللحظة؟ وما الذكريات التي مرّت بباله؟.

كنت أتذكَّر كل ما سمعته أو قرأته من مثل هذه الأحداث، وأضع نفسي بدلاً من هؤلاء المساكين، لكن ذلك لم يقلل من آلامي شيئًا.

انتهى اليوم، الشمس ملفوفة في كفن ممزق ملوَّث بالدم، وتقول لي: أنا أيضًا مسكينة، كان وجهي في البداية أبيض، الآن أصبح أصفر وسيكون أسود! أنا أيضًا أسيرة قانون الطبيعة، هذه الجذبة التي بيني وبين العشاق ستزول يومًا ما، وذرَّات وجودي هذه التي يعشق بعضها بعضا اليوم ويدور معًا، ستنفصل عن بعضها، كل ما

هو ملتصق لا بد إلى انفصال، لكن العشق هو الباقي، ولن تخلو أي ذرة منه، في النهاية حيثما تكون جذبة المعشوق أقوى تتجه الذرة إلى تلك الناحية. الدنيا جمع وتفريق، محبة وفراق.

فقلتُ لنفسي: إذن، فما ذنب "پريچهر"، لماذا أعتبر "فريدون" مذنبًا؟! أليست هذه هي أجزاء هذا العالم؟ أليست هذه الأجزاء لا تستطيع التمرد على قانون الطبيعة؟ تلك الجذبة والقدرة التي كانت في وجودي وجعلت "پريچهر" مجذوبتي، ضعُفَت، جاذبية "فريدون" أكثر مني، فانجذبَت "پريچهر" المسكينة على عكس رغبتها. الحديد حين يكون بين قطبي مغناطيس، يذهب ناحية الأقوى تأثيرًا وليس عليه جرم. ربما يكون الذنب ذنبي أنني عَرَّفت "فريدون" طريق بيتي وجعلت من "پريچهر" فريسة لمثل هذا الخطر. لا ينبغي أن نضع الصداقة في اختبار، ولا ينبغي اللعب مع الطبيعة، فالإنسان ضعيف عاجز، وهو أمام الدنيا مجبر بلا إرادة. تحسرتُ، ولمتُ نفسي لعدم الاحتياط، لكن قلبي قال: لا قيمة للعشق الذي ينبغي أن يكون خلف الستار وقيد الحراسة، فالحب المحبوس المقيد بجنزير الأسر ليس مطلوبًا.

كنت أرى "فريدون" و"پريچهر" كلاِ منهما بين أحضان الآخر، ولم يكن لي اعتراض على أحد منهما. كنتُ لا أحمل لأيٍ منهما حبا أو حقدا، ولم أعد أرىَ سببًا للحياة، فوضعتُ المسدس صوب قلبي

وضغطتُ على الزناد. شعرتُ أنني أموت، كنت أرى "پريچهر" حين تراني على تلك الحالة ويحترق قلبها من أجلي. كلما ضغطتُ فلا يفرغ المسدس، مهما فعلتُ لا أستطيع أن أرفع المقبض، كأن ذلك الجماد يعرف أنه ينبغي أن يؤذيني، ألقيتُ بالمسدس من غيظي على الأرض، فجأة خرجت الطلقة!...

دوّى صوت الرصاصة في الفضاء، وكنتُ أنا في حيرةٍ ودهشة، حين أفقتُ كان مجرى تفكيري قد تغيَّر... فعزمتُ أن أقسم أموالي، قبل أن أُخَلِّص نفسي من ألم الحياة. فنهضت بهذه الفكرة ومشيتُ، فكرتُ أن أهب جزءا من أموالي للعمال، وأترك ما بقِيَ لأخي "حسين" الذي كان يعمل مديرًا للدكان، لكن "پريچهر" كانت دائمًا تأتي ببالي ولا تدعني أفكر، كانت تقول: كل ما تملك هو ملك لي! أنسيت كل هذه العهود والوعود؟ بأي جرأة تفرض أنك صاحب اختيار! نسيتَ أنكَ كنت تقول لي ألف مرة: أنا أضحي بروحي ومالي تحت قدمك بإشارة منك؟ لم يكن هناك شرط في الأمر، الآن حان الوقت، أسرِع وفرِّق أموالك، ضح بروحك، لن أقبل عذرا، ولا تأتِ بذريعة!.

تذكَّرتُ أنني ذات يوم حين كنت أبدي العشق والتضحية قالت: ما تقوله هو الطفولة، لا تكذب، أتتخيل أن مشاعرك ستظل دائمًا كما هي كما تقول، لكنك مخطئ، فبمجرد أن تخالف إرادة قلبي رغبتك،

ذات مرة عندها تنسى هذا الكلام. كنت أمشي مسرعًا مشغولاً بهذه الأفكار، كنت في صراع، عندما رأيت أنني في المدينة، نسيتُ مالي ونفوذي، كان نَفَسي ينقطع مع كل خطوة، لمجرد التخيل أن المنزل سيكون بدون "پريچهر"، كانت روحي تفارق جسدي، أموتُ ببطء، ليتني كنت ميتًا... ذكرى كل ركن من المنزل، كانت ترعش جسدي، كانت تلك الموبيليا الجميلة والأشياء الظريفة التي أُعِدَت بكل ذوق وفن، تبدو أمام عيني وكأنها أشكال مفزعة، ستواجهني. كنتُ مغرمًا في ذلك المنزل بأدق الأشياء، بكل وردة وورقة شجر. روحي مرتبطة بكل ما في عُش العشق ذاك. الأمر العجيب هو أنني مع هذه الجدارة التي أتمتع بها في جمع الثروة، فإن قلبي لم يكن مطلقًا أسير المال والجاه، أحيانًا أسعد حين أحسب ما وصلتُ إليه، وحين كنت أرى المبلغ الضخم الذي ربحته، أسعد، تلك السعادة لم تكن بسبب الربح، لكنني كنت أستمتع بنتيجة جهدي وتفكيري. قبل أن أتزوج من "پريچهر"، لم أكن أعرف وسيلة لإنفاق الثروة؛ لأنني ورغم كل هذه المكاسب، لم يتغيَّر أسلوب حياتي البسيطة. الشيء الوحيد الذي كان يرضيني، هو أنني كنت أشتري كل كتاب أريده، لكن لأنني كنت أستطيع أن أقرأ أكثر من ذلك، فلم أكن أجمع الكتب للزينة، ولم يكن هوس القراءة باعثًا على الإنفاق الجزافي.

في ذلك اليوم الذي وقفت فيه على أعتاب العشق علمت أن الذهب والفضة وجدا لينثرا تحت قدم المعشوق، منذ ذلك الوقت

فصاعدًا وأنا أستمتع بثروتي، فكل تومان يُنفق حسب رغبة "پريچهر"، بالنسبة لي سعادة لا يعادلها أي مقدار من النقود. كنتُ مرتبطًا بأقل شيء في ذلك المنزل، عاشقًا له، كل ما وقعت عليه عين "پريچهر" ويدها، وشَغَلَ جزءًا من تفكيرها، يعتبر جزءًا من عشقي لها ومقدَّسا ومحبوبا. كان ذلك المنزل متحفًا أرى في كل مكان فيه صورة المحبوب. كنت أتخيل أثناء ذلك الانفعال أن وجه "پريچهر" قد محي من كل مكان، هربت روحها من ذلك المنزل، كل الأشياء كجسد بلا روح، باردة حزينة، ستنظر إليَّ بعيونٍ ميتة متحيِّرة. فكنت أخاف من هذا المنظر وأرتجف في نفسي، ربما يكون جسدي به جُرح؛ لأنني أتأثُّر به عند الحركة في الملابس.

شجعتُ نفسي، وقلت: هذه الدقائق القليلة من المحنة هي للتأمل، وبمجرد وصولي إلى المنزل أكتب وصيتي وأرسلها إلى أخي، ثم أقتل نفسي على نفس الأريكة، وفي نفس الحجرة المحاطة من الخلف بالورود الملونة عندما كانت عش عشقنا...

كان تحمُّل تلك الدقائق بالنسبة ليَّ كأنه انتزاع الروح، من أين كنت سأعرف أن هذا الكيان التعس سيكون فريسة لأشد الآلام النفسية والبدنية أياما وشهورا وربما لسنوات!...

***

أسرعتُ الخُطى حتى لا يَضْعُف عزمي، بكل قوتي أبعدت كل أنواع التفكير عن ذهني حتى وصلتُ إلى المنزل. بمجرد أن طرقتُ الباب، فُتِحَ، كان "إسماعيل" الخادم خلف الباب، فسأل: أين كنتَ يا سيدي في هذا الوقت من الليل، لم يبقَ الكثير حتى الصباح؟ لماذا أنت شاحب اللون، ووجهك ملوَّث بالدم، وملابسك متربة، هل وقعت أسير لصوص لا قدر الله؟ يرحمك الله.

أجبتُ عن هذه الأسئلة بآهات داخلية، في النهاية فإن "إسماعيل" لم يسمع، وعاد يقول: لقد جُرِحَ شخصٌ الليلة الماضية في محلتنا.

وقفتُ بباب المبنى بلا حركة، وكنت أنظر إليه في حيرة، لم يكن لدي الجرأة للصعود، ربما تخيَّل "إسماعيل" أنني جُننتُ، فأخذ بيدي وقال: لماذا لا تصعد؟ السيدة لم تنم بعد، تنتظرك. فارتجف قلبي، لسماع هذا الخبر، لو لم يساعدني "إسماعيل" ما كنتُ أستطيع أن أصعد.

أعترف أن هذا الاضطراب كان من الشوق، فثملتُ وسعدتُ، الماضي ذهب وانقضى، تأكدتُ أنه لم يكن خطأ، "فريدون" قال الصدق، فهو و"پريچهر" أحباني كالروح العذبة ولم يخونانى.

لم أدخل دهليز الفناء بعد. فمرت حالة السعادة هــذه كــالبرق حين يلمع في الليل الحالك، فاستولى علــيّ الاضــطراب والظلمــة المفزعة، أفسدت الغيرة والحقد صفاء قلبي، أحرق التكبر والأنانيــة غصن سعادتي، كانوا يقولون: لماذا تعلق قلب "پريچهر" بآخر، رغم أنك بكل هذه الطيبة والجمال؟ يا له من ذنب! لو تغفر لها هذا الذنب، ماذا سيقول الناس؟.

***

حزنتُ على نفسي عند مرآة الفناء، فقد تبدّل شــكلي تمامًــا، رأيتُ أنني أبكي، وهناك جراح بجبهتي وحول أنفي لا أتــذكر متــى حدثَتْ، وعبثًا حاولتُ أن أغيِّــر ذلــك المنظــر، أردتُ أن ترانــي "پريچهر" على ذلك الحال، حتى يحترق قلبها بعد موتي.

ذهبتُ ناحية حجرة النوم ووضعتُ يدي على مقــبض البــاب، لكن ليس لدي قوة للف المقبض. لكي أكون قويًا جعلتُ نفــسي فــي حالة من الغضب والضجر، ودخلت بهذا الشكل.

كانت المصابيح مشتعلة، و"پريچهر" ترتدي قميص النوم الذي كنتُ قد أحضرته لها في اليوم السابق. بياض صدرها وساقيها يسلب القلب كضوء الصبح. تمددت على جانبها فــوق الــسرير، ووجههــا ناحيتي، وقد أخرجت إحدى قدميها من اللحاف، القدم التي كنت أنظر

إليها دائمًا. بينما وَضَعَت صورتي التي كانت في الإطار الفضي الصغير على وسادتي وإحدى يديها تلتف حولها كالدائرة. شعرها مبعثر، يتموَّج في كل ناحية، لم أكن قد رأيتُ "پريچهر" بهذا الجمال من قبل، خفتُ وانهار قلبي.

كانت مغمضة العين، لا أعرف نائمةٌ أم مستيقظة. وقفتُ ولم أتقدم، كنت أري أن هدف حياتي أي العشق والأمل يبعد عني خطوة واحدة، لو مددتُ يدي لوصلتُ، أبكي بداخلي قائلاً: يا رب، ارفع عن رقبتي قيود أعداء العشق، وأشعل نار محبتي، ولا تجعل صوت الغيرة والحقد والتكبر يصل إلى أذني، يا رب خذ عني الغيرة والشرف وكل ما أملك، ودع لي فقط العشق يبقى من أجلي، يا إلهي اجعلني محبًّا لـ"پريچهر"، لا أريد منك سوى ذلك.

تحركت "پريچهر" في تلك الأثناء ووضعت وجهها على صورتي، فبلا شعور، ذهبتُ كي أركع على قدميها، قائلاً معبودتي، افعلي كل ما تريدين بشرط أن تدعيني أكون عاشقًا لكِ، ليس لدي طلب آخر. ففتحَتْ عينيها وقالت ببرود وبساطة: "علي"، كم تأخرت؟ اذهب فاغتسل وتعال لتنام.

لم أرد، هي أيضًا نامَت ولم تنطق. سئمتُ هذا البرود واللامبالاة، ذَهَبَت يدي لتُخرج المسدس من جيبي، فتذكرتُ أنني لم أكتب الوصية بعد.

نهضتُ وذهبتُ إلى حجرة المكتب، كنت أفكر في البداية أن أحرم "پريچهر" من الميراث، لكنني رأيتُ في النهاية أن عزائي أن يحترق قلبها بعد موتي دائمًا، ربما تندم وتخجل ذات يوم. كتبتُ:

"پريچهرِي" الخائنة، ذهبتُ، إذا كانت راحتك في عدم وجودي، فقد رحلتُ، أرحل من هذه الدنيا بعشقك.

أغفر لك نقضك للعهد، لذكرى ذلك الزمان الجميل، كل ذلك الحب والصفاء، تلك الخلجات الروحية وتلك السعادة السماوية التي أذقتِها لي، وأبتهل إلى الله في هذه اللحظة الأخيرة، أن يغفر لكِ ما فعلتِ في هذا اليوم، لقد تألمتُ مثلك بما يعادل مائة ذنب، أنا متأكد أن الله سيقبل رجائي.

ستكون عيني عليكِ وأنا في الآخرة، فتعالي لنكن معًا هناك، حيث العشق كله والوفاء، ولا مكان للخيانة أو عدم الوفاء. وهبتُ لكِ كل ثروتي، لو أردتِ فأعطِ ثلاثين ألف تومان لأخي "حسين"، وعشرة آلاف تومان لعمال الشركة.

فداؤكِ "علي".

كنت أتمنى قبل الموت أن أرى ماذا سيحدث لـ"پريچهر" عند قراءة هذه الورقة. توقعتُ أن تدخل من الباب وتقرأ هذه الورقة.

وضعتُ القلم على المنضدة وكنت أختبر المسدس حتى لا يتلجج كالمرة السابقة. فُتِحَ الباب ودخلت "پريچهر" بثغر مبتسم وتعلَّقتْ برقبتي، قالت: حبيبي "علي" ينبغي أن تقتلني أولاً، ثم تقتل نفسك، لكنك تتصور أن تتركني وحدي وتذهب ؟! "إتفو عليك"!...

كلما حاولتُ أن أُخلِّص نفسي من يديها، لا تدعني. أثناء ذلك الصراع وجهتُ المسدس بمحاذاة أذني وضغطتُ على المؤخرة، فدوى صوت الطلقة وفقدتُ الوعي، تنبَّهتُ فجأة فإذا بـ"پريچهر" تأخذني بين أحضانها وتقول بصوت منخفض: "علي" حبيبي، أنا بريئة، "علي" أنا سيئة الحظ، يرحمني الله، أشفق قلبه لحالي، لكني سيئة، اللعنة على هذه الطبيعة القذرة، حبيبي "علي"، أنا أكثر منك تعاسة، لماذا لا تقتلني؟ أنا أتعس من كل الناس، ألا تعرف قلبي؟!".

أدركتُ أنني لم أمت بعد، وأسمع هذا الكلام. كانت "پريچهر" تبكي، فقلتُ: لا تبكي، لم يحدث شيء، لكن لماذا لم تتركيني أقتلُ نفسي؟ لماذا ضربتِ على يدي، أنتِ التي لم تكوني معي بكل هذه الكراهية؟! فجذبتني وحملتني إلى حجرة النوم وألقت بي على الأريكة، ثم أخذت تحملق بي فترة، وسقطت في حضني وأخذت تبكي، واختلطت دموعنا.

***

غلبني الألم الجسدي وتأثير القوة النفسية المتداعية، فقَتَلت فيَّ عزة النفس والغيرة. كنتُ سعيدًا بعدم الشعور هذا، فمحبوبي بجواري وأنا في السماء.

ظهر الغد حين استيقظتُ، رأيتُ "پريچهر" ترتدي ملابسها وتجلس فوق رأسي، قالت: "علي" حبيبي انهض، أسرِع، علينا أن نسافر اليوم. فانفكّت القيود الثقيلة عن روحي لسماع هذه البشرى، وتحررتُ من سجن الألم والتعب، فكرت لو لم تكن تحبني، ما تركت الآخر وطلبَت أن تكون معي وحدها. تأكدت أنه لم يحدث خطأ. لمتُ نفسي على هذه الأوهام السيئة، وخجلتُ بسبب "پريچهر" و"فريدون". مع كل نَفَس كان على لساني أن أسأل: ماذا كنتِ تفعلين في منزل "فريدون" أمس؟ كنت أخشى أن يكون الرد على غير ما أتمنى...

نهضتُ وارتديتُ ملابسي، ثم تناولتُ طعامًا متنوعًا. واضح أن أمتعة السفر كلها مُعدَّة وسنذهب إلى "خراسان".

كانت "پريچهر" ترى في نظراتي وأحوالي أن لدي أسئلة، قالت: حبيبي "علي"، أعرف أن قلبك غاضب، تريد أن أحكي لك قصة الأمس، حين نكون وحدنا في الطريق، سأحكي لك بالتفصيل، سيطمئن بالك تمامًا. اطمئن. كنت أنا بين أوهامي، فقلت بصوت منخفض: إذن من الأفضل أن أودع "فريدون" قبل السفر. ابتسمت "پريچهر" بحزن، وقالت: عليك أن تنسى "فريدون"... فسكتُ أنا.

نظرَتْ إليَّ "بريچهر" نظرة مليئة باللوم، قالت: "علي"، لماذا تغيَّر حالك؟ ألست كافية بالنسبة لك؟ أنا التي تملكها، فأي حاجة لك بالآخرين؟. فأخذتها بأحضاني، وأخفيتُ رأسي بصدرها. كنت أخاف من رؤية الدنيا. فأغمضتُ عيني ولذتُ بها. كان قلب "بريچهر" يخفق بشدة، تخيلتُ أنها خائفة لتصور ضعف عشقي لها، فسرني ذلك. ليتني كنت أعلم، في تلك اللحظة أي شعور يجعل ذلك القلب يدق هكذا. لو أن نظرة داخلية تضيء لي تلك الدوامة المظلمة، ما كنت أشعر بكل هذه المصائب من الزمان. خسارة حتى عين الظن، لا تصل إلى عمق هذا البئر الذي لا قرار له الذي يسمونه القلب.

كنا نسير ناحية "خراسان"، أخذنا معنا "إسماعيل" الخادمو" جامن" كلبنا الوفي. كنت قد استأجرت أفضل عربة تجرها الخيول، بها جميع أنواع المأكولات والمشروبات، بينما كانت "بريچهر" تنعم داخل هذه العربة بغطائها الصوف ووسائدها الجميلة.

كان اليوم الأول هو أجمل أيام حياتي، حيث كانت تسير بنا العربة، قد التصقنا ببعض في فضاء العربة الضيق، كل منا يضغط علي الآخر بقوة، "بريچهر" تنام في أحضاني، كأن الدنيا قد أخذتها مني ومنحتها لي مرة أخرى.

ذِكر "فريدون"، غالبًا ما يثير وجداني، لكني كنت أتخلص من ذلك الألم في كل مرة بشعور وإحساس العشق، كنت أتمنى ألا تتحدث "بريچهر" أيضًا عن هذه الواقعة ربما أنساها تمامًا. كنا نسير سعداء.

لكن لأننا نحن، أول عدو للسعادة وسبب اضطراب العشق أيضًا، فتخيَّلتُ أنني لو لم أسأل عن الواقعة سأصاب في حميتي وشرفي. تحيَّنتُ الفرصة، وقلتُ: كان من المقرر أن تحكي لي قصة ذلك اليوم الشؤم حينما نكون وحدنا، وتخلصيني من هذا الفكر القاتل، فأنت لا تعرفين أبدًا ماذا دار بذهني؟

تأوَّهت "پريچهر"، وقالت: كم كان جميلاً أن تنسى هذه القصة، أخشى إذا قلتُ يتكدر صفوك، فقلتُ: احكي كل ما حدث.

قالت: لن أتكلم، لكن كلامي له شرطان، الأول: ألا نتحدث بهذا الشأن بعد ذلك. الشرط الثاني: ألا تحزن مهما سمعت. فقلتُ: أقبل الشرط الأول، وسأحاول قدر استطاعتي ألا أحزن، ثم قالت: الشرط الثالث هو أن تحب پريچهركِ أكثر مما سبق، هل تعدني؟ ماذا أقول! وهل يستطيع "علي" أن يحب أخرى غير "پريچهر"! الإنسان النبيل مثلك لا يمكن أن يكون عاشقًا في حياته أكثر من مرة واحدة، لكن كم يسعدون وكم لديهم من هدوء البال، فعشقهم هو عشق سماويّ. أنا أفهم هذه الأمور جيدًا، "علي" حبيبي، إن قلبك لَيحترق لحال هؤلاء المساكين الذين هم دائمًا أسرى لقلق شهوتهم واضطرابها، تلك القلوب التي تسعى في كل وقت وراء قطف الورود النضرة، ودائمًا يُجرحون وينزفون الدم من أشواك الجفاء. هنيئًا لك، كل إنسان نقي السريرة مثلك، إنسان محظوظ.

كنت مغرورًا أزهو بداخلي بنفسي، لكن حديث "پريچهر" كان مع نفسها؛ لأن فهمي القاصر لم يكن ليصل إلى عمق قلبها المعقد.

كأنه ليست هناك صفة ليست بها عيوب، قلب طاهر لا يضمر الشر، ويُخدَع، عين صديق، لا ترى الاعوجاج والكذب، فتسقط في الهوة...

رأيتُ أن "پريچهر" عرفت أنني أفضل من "فريدون"، وأنها رقّت لاستقامتي، فسُررتُ لدرجة لم يكن لها حد. حين يستطيع الرجل أن يرفع رأسه بين الجميع، وأمام المعشوق فكأنهم رفعوا جنزير الأسر من فوق رقبته، يتخلص من القيود واضطراب البال والخوف.

بعد فترة من التوسل، قالت "پريچهر": الذنب ذنبك لأنك عرّفت "فريدون" بي، وبعد ذلك بعدة أيام أتيت به إلى المنزل فتوقعت أن ينتهي حبك، ومن نظرات "فريدون" لي فهمتُ أن تفكيره ليس منزّهًا، فارتجف قلبي، كنت أقول يا ربي ماذا سيحدث! وأردتُ أن أحكي لك الموضوع مرتين ثلاثة، فقلتُ ربما ينصرف من نفسه ولا تقطع أواصر صداقتكم، حتى ذلك اليوم حين أبدى لي عشقه، لكن المسكين كان هو نفسه يخجل، ماذا يفعل فلم يكن الذنب ذنبه أيضًا، فقلب الإنسان دائمًا ليس تحت أمره...

كادت روحي تفارق جسدي تقريبًا، رأيتُ أنني لا أتحمل شرح الموضوع، فقلتُ: تكلمي بسرعة، في النهاية ماذا حدث؟ لماذا ذهبتِ إلى منزله ذلك اليوم؟ قالت: كنتُ قد ذهبتُ في ذلك اليوم لأجعله ييأس مني تمامًا وأنصحه. فكَّرَتْ قليلاً ثم قالت: ومنذ ذلك اليوم انتهى ما كان بيننا، أي أن "فريدون" فهم أنه لا فائدة من إصراره. كنت أتمنى أن تظل صداقتكم مستمرة، لكن الله لم يُرِد وجئتَ أنتَ ورأيتني هناك. لكنك لا تعرف كيف مرَّ الأمر على "فريدون"، كاد أن يجن، من الخوف أو من الندم، لم يفتح ورقتك، أردتُ أن آخذها وأقرأها، فلم يدعني. صحيح ماذا كتبت له؟

قلت: لقد وهبتُ عشرة آلاف تومان من مالي إلى "فريدون".

احمرَّ لونها وقطبت الجبين، قالت: "علي" أنتَ طيب جدًا، تؤذيني بكل هذه الطيبة، أنا أكره هذه المشاعر الرقيقة، كنتُ أحبك من أجل وسامتك، لكن الآن أرى أن استقامتك تأسرني وتجعلني جاريتك، وأنا لا أحب العبودية.

في ذلك الوقت، لم أكن أفهم جيدًا ماذا تريد أن تقول، بعد قليل من الصمت قالت أيضًا: كان "فريدون" يفكر في أن يأتي أمامك ويحكي لك كل ما حدث، فلم أتركه لأنك لن تصدق كل ما يقول، ومن الممكن أن تخوض في شرفه من قبيل الأشياء التي تقولها. وربما يؤدي ذلك لما هو أسوأ. فكان من الأفضل أن يترك الأمر كما هو.

فقلتُ: أنا نادم لأنني لم أقتل "فريدون". سألت بتوتر قائلة: هل رأيته ثانية؟ حكيتُ لها التفاصيل، فقالت في غضب واشمئزاز: أنا لم أعرفك إنسانا قاتلا! اعلم أنك لو كنت قتلت "فريدون" فسوف أكرهك، لأن الإنسان القاتل لا يمكن أن يُحب!

أثار دفاع "پريچهر" عن "فريدون" وجـداني، فقلـت بغلظـة: واضح أنكِ لم تكوني تحبينه! قالت: كل من يبدي محبة لك، يتخذ لـه مكانًا في القلب، ألا تعرف أنه من القلب للقلب رسول، لكني حقيقة لا أحب "فريدون"، كان قصدي أنك لا ينبغي أن تكون إنسانا قاتلا، فمثل هذا الفعل بعيد عنك. قلتُ: لكن عندما أردتُ أن أقتـل نفـسي، لـم تلوميني؟!

لم تَرد وصمت كل منا، ففتر قلبي ناحيتها، وتنحيت جانبًا حتى لا أواجهها. مضى يوم على هذا الحال، كنا نسير منشغلين بالأفكـار المشوشة وبضعفنا، لكن يا له من يوم مضى بصعوبة!.

هدأت نار الحقد التي كانت كالشعلة بوجداني تجاه "فريـدون" و"پريچهر"، وحلَّ محلها حزن أسود، تضايقتُ من الوحدة، أردتُ أن ألجأ إلى "پريچهر"، فحالت كرامتي دون ذلك. كان وقـت الغـروب، وفي ذلك الوقت تهاجم الإنسان الأوهام المفزعة كالحيوانات المفترسة التي تخرج من جحورها. ربما تشعر "پريچهر" بحالي أو تكون هـي

الأخرى تعاني مثلي من حزن الغروب وتبحث عن ملاذ، نَظَرَت في عيني وضَحَكَت فأخذني أنا أيضًا الضحك. احتضن كل منّا الآخر وأخفى كل منّا أوهامه المضطربة بصدر الآخر، ولم نفترق ثانية حتى الصباح. قررنا أن ننسى الماضي، ونواصل الحياة والعشق من جديد، وسعدنا. حقًا أن وشائج الصداقة قد أُعيد ربطها تقريبًا من جديد، لكن تظل بالذاكرة نقطة سوداء.

***

فرسخٌ واحدٌ ونصل إلى... فأضاء نور الصباح حفلنا، ووقعَت عين الطبيعة على بساطنا الملون فحسدته.

رأيتُ أن العربة تجري بسرعة غير طبيعية، كانت تجري بسرعة كأنها انفصلت تقريبًا عن بعضها، فصرختُ "إسماعيل" ماذا تفعل؟ هل جُنَّ سائق العربة؟! التفت برأسه حتى يجيب، فدوّى صوت بعض الطلقات، فسقط كلٌّ من "إسماعيل" الخادم وسائق العربة، سارت العربة بضع خطوات ثم توقفَت، كانت الطلقات قد أصابت الخيول فانزلقت، فجأة لمع برق أمام أعيننا، حين عبرت طلقة من بين جسم العربة! كانت "پريچهر" ملتصقة بي وهي ترتعد، أخرجتُ رأسي من كوة العربة... فرأيتُ شخصين من وحوش الصحراء، رأسهما معقودة بمناديل حمراء، ذوي لحى طويلة سوداء، يركضان وقد وجَهاَ بندقيتيهما بيدهما ناحيتنا، حين رأونا جلسا وذهب الحراس.

أدخلتُ رأسي من الكوة وضغطتُ على عضلاتي لإصابة الطلقة، لكنها لم تنفذ إلى الداخل. اقتربا وكانا يصيحان بلهجة تركية خاصة: انزلوا!.

كنت ألقي بالأمتعة فوق بعضها كالمجنون، وأبحثُ عن المسدس في كل ركن، سألتُ عنه " پريچهر" فقالت: لم أحضره!.

أردتُ أن أنزل من العربة، فلم تدعني، خلصتُ نفسي من قبضتها بصعوبة ونزلت، فقلت للصوص: ماذا تريدون؟ لماذا تهاجموننا! فسبونا بلغة تركية غير سليمة وكانوا يتوعدوننا، فهمت من لهجتهم أنهم من التركمان(*)، أثناء ذلك وصل شخصان من هذه الكائنات ناحية العربة والتفوا حولنا، في الرد على كل كلمة أقولها تصيبني لكمة أو صفعة أو قعر بندقية، وقيَّدوا يدي وقدمي. كان أحدهم يقول: دعوني أمزق بطنه، وقال آخر ساخرًا: دعوني أخلصه برصاصة حتى يموت أكثر راحة. وأخيرًا قالوا: نمزقه إربًا حتى يكون له ثواب.

(*) ظهر "التركمان" منذ زمن بعيد، يعود وجودهم إلي عصور ما قبل الميلاد، الشعب التركماني خليط من عرقيات مختلفة: التركمان، الروس، الأوزبك، القازاق. والمسلمون هناك معظمهم من السنة. (المترجم).

جاءوا بـــ "پريچهر" من العربة مغشيًّا عليها، فقال واحدٍ منهم كانت له الرئاسة على الجميع يدعى "سردار"(*)، هـــذه المـــرأة لـــي! فقذفتهم بلا وعي بالكثير من السِباب، فوجهوا إلى رأسي لكمتين ثلاثة فارتبكتُ بشدة، غابتِ "پريچهر" عن الـــوعي، تخيلـــت أنهـــا ماتـــت لا محالة؛ لأنني متأكدٌ أن الخلاص من مخالـــب هـــذه الحيوانـــات، ليس ممكنًا!.

أخرجوا الأمتعة من العربة، ووضعوها علـــى أحـــد خيـــول العربة، كان لا يزال حيًّا، وجردوا "إسماعيل" وســـائق العربـــة مـــن ملابسهما، وكانا قد أشرفا على الموت أو ماتا فعلاً. ورأيـــتُ عينـــي "پريچهر" مفتوحة وتناديني. فقلتُ لها: تشجعي، فالله موجود! فسحب "سردار" خنجرًا ناحيتي، وقال: لا تتحدث إلى زوجتي، حتى لا أخرج قلبك.

(*) "سردار": كلمة فارسية "سر" تعني رأس و"دار" بمعنى صاحب، والـــسردار القائد، يتميز بالجسارة والبراعة. وأوامر المحارب المجرب تنفذ في الحـــال، وكل شخص يمكنه أن يصير "سردارًا" إذا انتخب من قبل عشرة أشخاص.. للمزيد انظر "التركمان بين الماضي والحاضر" ترجمة: عبد العزيز عـــوض الله. سلسلة الدراسات الدينية والتاريخيـــة (العـــدد ١٩) يـــصدرها مركـــز الدراسات الشرقية- جامعة القاهرة ٢٠٠١م (المترجم).

قرروا أن يقتلوني. قال "سردار" أنا أقطع أذنيه، وقال الآخــر: أنا أمزق بطنه، فخطر ببالي عرض، قلت: أنا من أهل السنة مــثلكم من مدينة "إستانبول"، إذا قتلتني لن تنال شفاعة "عمر" يــوم القيامـــة! وخدعته لأنني كنت أتحدث التركية وأرتدي ملابس صيد: البنطلــون، والجاكيت، والقبعة الجلدية غير المقواة. سأل "سردار": ماذا تعمــل؟ قلتُ: تاجر بُسط، في طريقي إلى "مشهد"، لا تقتلنا، سنعطيك الأموال ونشتري دماءنا. قال: كم معك من أموال؟ أخرجتُ كل ما لديَّ مــن عملة ورقيـــة، تقريبًـــا ستمائـــة تومان، أخذها من يدي ودسها فـــي جيبه. وقال آخر لـــ"سردار" وكان أكبرهم ســـنًّا، إمـــا أن تعطينــــي الأموال أو المرأة! فضربه سوطًا وقذفه ببعض الشتائم، ثم سدد لـــي ركلة قوية بدلاً منه، وقال: هذا الكلب هو أسيري أيضًا! آخـــذ ألـــف تومانٍ حتى أطلق سراحه، فيصبح نصيبي أكبر منكم جميعًا!

فأخذ الشخصان الآخران الأموال.

ربط "سردار" كلبي العزيزِ "جامن" بحبل طويل بالسرج، وأخذ "پريچهر" خلفه. ثم قذف بي ذلك الآخر أمام حصانه ومـــشينا، بعـــد نصف فرسخ انفصل عنَّا هذان الشخصان، اللذان كانا قد أخذا أمتعتنا وسارا من طريقٍ آخر.

في كل مرة كنت أسير فيها ببطء، كنـــت أُضـــرب بالـــسوط وأُسب. واضح أننا نسير في صحراء، كنا نعبر بين الهضاب والتلال

الوعرة. كان "سردار" غالبًا يغني، وأحيانًا يتحدث مع الشيخ. قال الشيخ: لو لم آخذ ألف تومانٍ، سأعطي هذا الكلب لأولادي يمزقونه. قلت: دبر أنت وسيلة حتى أرسل رسالة إلى "طهران"، فتأتي بألف تومانٍ. قلتُ لـ"سردار": كم تريد من أموال من أجل المرأة؟ ضحك وقال: لا أترك هذه الحورية بعشرة آلاف تومان. فقلت: أنا أدفع خمسة عشر ألف تومان. فأثار سماع هذا الكلام الشك المريب بذهنه، وحتى لا يردَّ عليَّ، أخذ في الغناء.

سبني الرجل المسن بشتائم قبيحة، كان يقول: ينبغي أن تشتري رأسك أنتَ أيضًا بخمسة عشر ألف تومانٍ! في تلك الأثناء اصطدمت قدمي بحجر فوقعت، لشدة الألم، لم أستطع أن أنهض، لم تأتِ شتائم وتهديد الشيخ بنتيجة، فترجل عن جواده ودقَّ رأسي بالسوط. سئمتُ هذا الذل، نسيتُ الألم، فنهضتُ ولكمتُ رأسه بعدة لكماتٍ قوية! فكان "سردار" يضحك والرجل العجوز يسخر. فسحب العجوز خنجره ثم جاء ناحيتي، أخذت "پريچهر" تصرخ، فقال "سردار" "قليچ" ماذا تفعل؟ أتريد ألف تومان؟ فتيبَّست يد العجوز في الهواء.

نزل "سردار"، وألقى بـ"پريچهر" على الأرض، وقال: لقد صنعوَها كلها من الزبد، تتعب سريعًا، وينبغي أن تستريح. ثم أخذ يحملق في وجه "پريچهر"، قال: "قليچ" انظر ما لون عينيها! شعرها بلون الذهب، لا توجد سيدة مثلها في كل الصحراء، أنتِ

أفضل من ألف تومان! ثم قرَّب رأسه حتى يُقبِّل "پريچهر" ففقدتُ وعيي وهجمتُ كالسبع، أمسكتُ إحدى يديه بالخنجر وكنا نتصارع باليد الأخرى. استمر هذا الصراع فترة، كانت قهقهة "قليچ" وصراخ "پريچهر" ونباح "جامن" يشجعني، كنتُ مندهشًا من قوتي، ولكني أشعر أنني أستخدم كل قواي لو أتى الرجل المسن لمساعدته، سأستسلم وأرى نفسي مقتولاً. في تلك الأثناء نبَّهنا صراخ "پريچهر" المفزع والمحزن، كانت تقول: حبيبي "علي"، خذني! يا رب أنقذني، ترك كل منا عنق الآخر، ورأيتُ "قليچ" وقد أجلس "پريچهر" أمامه على حصان "سردار" ويستعد للتحرك! فهجمتُ ناحيته. فضرب حصانه بالسوط وأخذ يعدو. أما "جامن" فقد خلَّص نفسه من قيده، وكان يجري وراءهم. أخذتُ أجري خلفه كالمجانين، امتطى "سردار" حصان "قليچ" واندفع كالريح. وقعتُ أنا من تلقاء نفسي، وبعد عدة دقائق اختفوا عن الأنظار، خلف التلال.

* * *

أخذتُ أصرخ وأهيل تراب الصحراء على رأسي، ماذا أقول، تلك الأحوال، ماض، وكيفيتها غابت عن عيني، على فرض أنني كنت على ذلك الحال الآن، هل كنت أستطيع أن أجد تشبيهًا يدرك به القارئ قسوة هذه المأساة؟ أنا متأكدٌ أنني ليس فقط، لا أستطيع أن أعبر عن القصد، بل سيكون له أثرٌ عكسيٌّ عليكم. لو أقول إنهم كانوا

يستلون روحي مني بملقاط هنا ستتخيلون آلامي الجسدية، وتـدركون أن الآلام حين تشتد تقتل وتُخلص، لكني لم أمُت، لا بد أن آلامي لـم تكن مبرحة. فقوة الروح أكبر منها، وتتحمل أي درجة من المحنـة. كان ضوء النهار والسعادة يحل من السماء العالية بقدر ورطة الزمان السوداء، فكانت جبال الألم تعبر عليها، وتغوص في سيل الدموع وما زالت حيَّة، قادرة على تحمُّل المصائب الجسام. جسدنا إناء صـغير يمتلئ بقليل من البؤس والمشقة، فطاقة الجـسد لهـا حـدود، حتـى بالتمرين والرياضة لا يمكن تجاوزها، لكن قوة الروح كبيـرة، إلـى درجة أنها تتحمل آلام كل هذه الدنيا.

اضطربت حواسي، كل ما أذكره أنني كنت أرى كل ما علـى الأرض والسماء يرقص ويسعد، حتى الحصى، كنت أنا أيضًا أثـب دون وعي وأدور حول نفسي وأصرخ بضحكات عالية. ربمـا كـان ذلك بسبب أشعة الشمس وحرارة الجو، في تلـك الحالـة، اعتبـرتُ تموُّج الهواء الذي ينتجُ من النور والحرارة، كأنه رقـص، وعلامـة سعادة الطبيعة، كنتُ مجنونًا، أتخيل أن أحجارًا كبيـرة قـد رُبِطَـت بقدمي، و"پريچهر" تمشي أمامي وأنا مهما مشيتُ فلا أصـلُ إليهـا، كنت أصرخ وأخمش وجهي ورأسي بأظافري. لا أعرف كم اسـتمر بي الحال على هذا النحو، حين أفقتُ، رأيتُ نفسي في غابة كثيفـة، نصف جسمي في الماء. رغم أن الذاكرة ذلك العدو غيـر المقبـول

العاجز الذي يجدد آلام الماضي دون إرادتنا، ويحملنا آلاف الأحمال من الخسائر، فتذكرتُ مرة أخرى من أنا؟ وما حالي، فكرتُ وعرفتُ أنه ليس هناك أمل أو رجاء إلا الموت، ينبغي أن أموت بصعوبة.

أنا الذي كنتُ مستعدًّا لأن أقتل نفسي في اليومين الثلاثة السابقة، أخاف هكذا من الموت، وأنا على هذا الحال، حتى أنني لا أتصور أي مصيبة أصعب من الموت! كنت أتمنى أن أعيش وأذهب وراء "پريچهر"، الدنيا كلها كانت "پريچهر"، لم أكن أستطيع أن أترك الدنيا. تموج ماء النهر تحت شعاع الشمس، تُخيِّل إلي أنها جدائل "پريچهر" المتعرجة، ذهبتُ إلى النهر دون وعي، وكنت أقبِّلُ موجات الماء، وتبللتُ أكثر بدموع العين.

كنتُ قد ضعفتُ حتى أني لم أعد أشعر بألم جسدي أو تعب بروحي، وشائج محبتي ضعفت ونسيتُ نفسي. كنتُ أتخيل ثملاً، أنني أرى "پريچهر" تنام على ظهر جماعة من الحمام الأبيض، تتنزه في السماء، أنا أيضًا حلقتُ وأوصلتُ نفسي إليها وجلستُ بجانبها. بعد قليل جاء "فريدون" أيضًا ضاحكًا ودودًا، وجلس على السرير، كتلك الأيام السعيدة، فكان مجلسنا مليئا بالمحبة والسرور.

* * *

لا أعرف ما الذي حدث بعد ذلك، فتحتُ عيني فجأة فرأيتُ عالمًا غريبًا، كانت "پريچهر" تقف فوق رأسي تنظر إليَّ! أذني لم تكن تسمع، لكني تخيَّلتُ أنها تقول: انظر ماذا أصابني، كم اصفرَّ لوني، ضاع جمالي ورونقي، احمرَّت عيناي بعد أن بكيتُ، كم تحملت من آلام، وكم تعذبت، لكني فررتُ علي أي حال، وحفظتُ شرفي وعشقي من أجلك. كنت لا أنام ليلاً، أجري وراءك نهارًا وحتى الغروب في الصحراء المحرقة جوعى وعطشى، كم خفق هذا القلب الضعيف حتى صار حفنة من الدم، خوفًا منهم ومن هؤلاء الوحوش، كل هذه الآلام والمتاعب أصابتني لسوء ظنك بي، هل لديك ثانية أي شبهة في وفائي؟ هل ظل في قلبك نقطة سوداء على وجهي رغم هذا؟... اقبلني بهذا الشكل وعلى هذه الصورة، أحبني أكثر من ذي قبل، أنا "پريچهر" الوفية لك؛ أنا جاريتك، روحي كما هي لكن وجهي تغيَّر، الذنب ليس ذنبي...

استعدت نفسي تدريجيًا وشعرتُ أن شخصًا ما يمسح جسمي، تنبَّهتُ ورأيتُ الحقيقة، شخص أسمر، قوي البنية، بقبعة وملابس تركمانية، كان يجلس ويضغط على جسدي برفق، بينما تقف أعلى رأسه سيدة معصوبة الرأس بمنديل أحمر، لونها أصفر مائل للسمرة، عيناها كانتا على ثمار الجوز.

سألني الرجل الأسود باللغة التركية: أتستطيع أن تأكل شيئًا؟ فقلت: ليس ضروريًّا، فأنتَ لن تتركني حيًا، فقال: لا تخف أنا لستُ تركمانيًّا، الشيعي "مرتضى عليم"، فأمسكتُ يده وقبَّلتُها. أسود قبيح، في نظري حور من الجنة.

أطعموني الخبز والماء، استعدتُ قوتي وقصصتُ لهم ما حدث بالتركية، حتى تفهم تلك السيدة، فبكى كل منهم ثم أخرج ذلك الأسمر كمية من العملة الورقية من جيبه ووضعها بين يدي، قال: هذه أموالك، التي أخذها منك التركمان، أنا لا آكل المال الحرام، وهذا الحصان الأبيض أيضًا هو من التركمان وعاد إليك. اركب حتى نذهب معًا إلى المدينة، سألته خائفًا: ألم ترَ "پريچهر"؟ قال: لا، رأينا هؤلاء الشباب التركمان الذين أشرتَ إليهم، وقد وقعوا في الصحراء وماتوا، والآن أفهم أنهم جاءوا من غارة، عثرتُ على هذه الأموال في جيوبهم، أخذتُ حصانه الذي كان يقف بجوار القتيل وأعطيتُه لـ"جلبهار" زوجتي، ركبَت. كانت مصادفة سعيدة لأن حصاننا مرض وكان متعبًا، فركبنا منذ الليلة السابقة أنا وهذه البنت حتى الآن ونجونا بأنفسنا. سألته ممَّ نجوتَ؟ فقال: إن قصتنا طويلة، وهذه خلاصتها.

***

أنا خادم "فضل علي خان" عميد قبيلة "شاهسون"(*)، اسمي "جهانشير". ذهبنا العام الماضي مع القبيلة إلى "استراباد"، بعد أيام صار "العميد" مأمور "آق قلعة". ذات ليلة هاجمنا التركمان، اشتبكنا حتى الصباح، عندما لاح الصبح رأينا أنهم حاصرونا من الجهات الأربع. حاربنا ساعة ساعتين، وكان قد قُتل عشرون ثلاثون جنديًا، فقال "العميد": علينا أن نُسلِم، لا حيلة فالمساعدات لم تصل. جاءوا وقيَّدوا أيدينا إلى الخلف. مشينا أربعة أيام، أثناء الطريق، كانوا يبيعون الجنود إلى قبائل "ابه" في اليوم الرابع أحضرونا أنا و"العميد" إلى القائد "بلنك" والد هذه البنت، فكانوا يرسلون "العميد" لمدة أيام للعمل كأجير، وجعلوني علافًا لهذا الحصان. هذا الحصان كان معروفًا بين التركمان يقولون إن قيمته ألف تومانٍ، كان "الأمير" يحبه أكثر من روحه(**)، كان الرجال والنساء يأتون لمشاهدتي؛ لأن قامتي

(*) كان هذا الاسم يطلق في بداية العصر الصفوي علي القبائل التي تحمي الشاه، لكن وبناء علي دعوة من الشاه عباس الكبير جاءت أسرة بنفس الاسم من آسيا الصغرى إلي إيران، وعاشت في "أردبيل". والآن قبيلة "شاهسون" واحدة من أكبر عائلات إيران، تعيش في منطقة بين تبريز وأردبيل وجنوب قزوين. "فرهنگ معين" جلد پنچم صـ ٨٨٠.

(**) التركمان ينشغلون بخيولهم دائما دون كلل أو ملل، ودون توقف أو راحة. وهم يهتمون بخيولهم كعيونهم ولا يتعبونها، ويرجع السبب في ذلك إلي أن التركمان البدو يكونون في حالة حرب مع جيرانهم بصورة دائمة. انظر: التركمان بين الماضي والحاضر. د. عبد العزيز عوض الله.

طويلة، أحيانًا كانوا يحضرون لي الطعام، وكلما كنت أتوسل إليهم أن يدعوني أذهب لأعمل أجيرًا عدة أيام بدلاً من "العميد"، لكن دون جدوى، كنت أكاد أموت من الخجل.

"العميد" الذي لم يكن حتى يدرب الجنود بنفسه، الآن عليه أن يحتضر تحت الشمس المحرقة! ألا يخجل هؤلاء القساة من لحيته البيضاء؟! في الليلة التي كان يعود فيها، يكون متعبًا وضعيفًا حتى يغيب عن الوعي، فكنتُ أمسح جسمه، أحضر له من غذائي الذي كنتُ أحتفظ به. عندما كان يفيق يتحدَّث عن أطفاله، فتنهمر الدموع من عينيه، فنبكي معًا، كان يقول: لعن الله هذا الحاكم الكافرالذي لم يرسل لنا المساعدة، وجعلنا أسرى لهذه الحيوانات، ويتَّم أطفالنا.

بعد عدة أيام، جاء ثلاثة فرسان من التركمان على خيولهم وأخذوا "فضل علي خان" من قبيلة "ابه"، بعدها لا أعرف عنه شيئًا. فكنتُ أتوسل بالأئمة في كل صلاة أن يخلصوه من هذا الشر، لكن لا أعرف ما إذا كانت صلاتي في هذه الفترة مقبولة أم لا؛ لأن هؤلاء الكفار أجبرونا على أن نصلي مقيدي اليد، ربنا يغفر لنا ذنوبنا.

كانت "جلبهار" بنت "الأمير" تحضر لي الطعام، فيحترق قلبها لحالتي الغريبة. تضع لي المرهم على الجرح الذي كان من أثر الجنزير، كانت تأتي حين لا يكون أبوها وأخوها هناك وتجلس أمامي، تشجعني.

كانت تحبني بشدة وتتنازع دائمًا مع "عائشة" زوجة أبيها من أجلي، لكن "الأمير" يحب "جلبهار" أكثر من عينيه، وكل ما تفعله طيب.

ذات يوم جاءت وألقت بيدها على رقبتي وقالت: أنا أحبك. فأبعدتها، تريد أن تلقي بي في الجحيم! فمشت باكية وأحرقَتْ قلبي، ثم انقطعت عني بعد ذلك يومين، فكانت "عائشة" تأتي لي بالطعام، وفي كل مرة كنت أسألُ: أين "جِلبهار" كانوا يسبونني في الرد. وقد اشتقت إلي "جلبهار" كثيرًا، حتى أنني لم أستطع أن أتناول الطعام، وفي اليوم الثالث جاءت "جلبهار" وقالت: لماذا لا تأكل؟ فقلت: لقد قبض حلقي حزنًا عليك، والآن حيث جئتِ سآكل. ثم أرادت أن تقرب نفسها مني، فأبعدتها عني برفق، فسألَت: ألا تحبني؟ قلت: لماذا؟ لكنك لستِ محرمًا لي، أنا لا أريد أن أحملك معي إلى جهنم، إذا أردتِ، أطلبك خطيبة لي من" الأمير"، ذهبتُ إلى والدها وقلت له بالتفصيل، فصفعني صفعة قوية، وسحب ابنه البندقية ليقتلني، فمنعته "جلبهار".

وضعت "جلبهار" عندئذ يدها على ساعد "جهانشير" واغرورقت عيناها بالدموع. كانت محبة كل منهما للآخر، تذيب نار عجزي ووحدتي، فأخذتُ أبكي. قال "جهانشير": منحك الله الصبر، اترك أمرك للإمام الرضا وبقولك أيها الإمام الرضا فأنت ضامن

الأغراب، أودعتُ نفسي وزوجتي لك. سينجينا الإمام الرضا في نهاية الأمر. كنت كطفل يطيع كل أمر حتى يصل إلى ما يتمنى، أكرر كل ما يقول فأستريح، ففُتح حلقي، وتوقف بكائي كأنني أوكلتُ أمري إلى شخص قادر، فاسترحت بعد دقيقة واحدة.

قلتُ: احكِ لي بقية الحكاية، فقال: "لو لم تكن "جلبهار" كانوا قتلوني. كان كل البلاط يسعى إلى محبة "الأمير"، يطيعون كل ما يقوله، لكن بعد ذلك لم تعد تأتي إليَّ وحدها، كانت "عائشة" معها دائمًا. كنا نختلس بعض النظرات من "عائشة" ونشير إلى بعض. مضى وقت على هذا الحال. ذات يوم تنازع "الله وردي" "ابن الأمير" مع أخته، ولأنه كان يعرف أن "جلبهار" تحبني، جاء ليقتلني. كنت جالسًا فدقَّ رأسي من الخلف بالسيف فاسودَّت الدنيا بعيني، فوصلت "جلبهار" على صراخي، وغبتُ عن الوعي. قضيتُ شهرًا في علاج رأسي، لم يقدر لي الله أن أموت.

ليلة أول أمس كنتُ نائمًا، استيقظتُ على وقع أقدام وتخيَّلتُ أن "الله وردي" قد جاء ليقتلني! فنهضتُ من مكاني واحتضنته، كانت "جلبهار"، فقالت بصوت منخفض: أنا، لا تخف، انهض لنهرب. فقلتُ: إن قدمي مغلولة بالجنزير. قالت: لقد أحضرتُ المفتاح، فتحتُ القفل ورأيتُ نفسي طليقًا، لم أفهم ماذا حدث، طار عقلي! الله يسامحني، خدعني الشيطان فقبَّلتُ "جلبهار" دون وعي! لففنا حافر

الحصان باللباد حتى لا يُحدث صوتًا. ركبنا ومشينا، حتى أضاء نور الصبح، ووصلنا إلى نبع ماء، ترجلنا، كنا جائعين جدًا، ولدينا كفتة جيدة، أخرجنا الطعام من الخرج وأكلنا، كنا نفتقد الأحبة، أخرجَتْ "جلبهار" لفافة من الخرج، فرأيتُ أنها أحضرت بعض حليها الفضية والذهبية والأموال الصفراء والبيضاء، وكذلك الخاتم الألماس لـ"فضل علي خان"، ففرحتُ. هذا الخاتم كان "العميد" يحبه أكثر من روحه، فهو ذكرى من المرحومة الأم، دائمًا يحتفظ به وفي السفر كان يربطه على ساعده. ما شاء الله "جلبهار" ماهرة جدًا، عند السفر، أخذت خزينة والدها كلها! لكن لأن المال حرام، فأنا لا أنفق منه، تشتري هي لنفسها به كل ما تريد".

تضايقتُ من "جلبهار"، رأيتُ أنها من أجل إشباع شهوتها، نفضت يدها من كل شيء وجعلت والدها أسير الألم والحزن، فتذكرتُ أن "پريچهر" فعلت نفس الشيء من أجلي وأعجبني! كنت أعرف أن والدها مرض من شدة الحزن، لكن كأنه عدوي وأصابه الحزن، كنت أستمتع بذلك أو ربما لأنني لم أكن أتخيَّل أن سوء الحظ موجود في الدنيا! كنت أعتبر أنه من الطبيعي جدًا أن تتمنى البنت شخصًا ولو لم يرض أبوها، تذهب وراء معشوقها وتترك المنزل والأسرة. كنت أعتبر أن هذه الشجاعة والتضحية هي دليل قمة العشق والوفاء.

عندما سمعت أن "جلبهار" فعلت نفس الشيء، لا أعرف لماذا مرَّت أمامي قصة "فريدون" و"پريچهر"، واحترق قلبي من أجل "جهانشير".

بينما أنا في هذه الأفكار قال "جهانشير": حالنا أفضل منكم، فنحن قد تخلَّصنا وأنتم ما زلتم في المحنة حديثًا. لكن من الصعب أن يسلبوا الإنسان شرفه، مسكينٌ أنتَ، أي قلب لديك؟! يمنحك الله الصبر. إن شاء الله حين يتحرر "العميد"، وعند الوصول إلى" تبريز"، سأقدم له الحصان و"جلبهار" وكل شيء، أنا متأكدٌ أنه سيهب "جلبهار" لي فنتزوج...

***

كنتُ قد نسيتُ نفسي، لسماع هذه الحكاية لكن عندما انتهت، تضاعفت آلامي مئة مرة، لماذا كنت أرى أن السعادة في أحضان الآخر وأحسده عليها؟.

قال "جهانشير": انهض لنذهب؛ لأننا لا نستطيع أن نبقى أكثر من هذا، فهُم وراؤنا. قلتُ: عليّ أن أجد "پريچهر"، إلى أين أذهب معك؟ قال: لن تصل إلى شيء في هذه الصحراء بمفردك، فينبغي الذهاب إلى المدينة ثم فكر.

لكني كنت أريد أن أبقى في تلك الصحراء وأموت فـأتخلص من الفكر في "پريچهر". فالعثور عليها وفقدانها كلاهما مصيبة لـي، كان تصوُّر كل ما حدث لي يـشَتِّتَ تفكيـري. لـم يثمـر إصـرار "جهانشير"، لذلك قرر أن يترك لي حصان ذلك التركماني المقتول مع كمية من العلف وبذهبا، احتفظتُ لنفسي بمئة تومـانٍ مـن أمـوالي وأعطيتُ الباقي لـ"جهانشير".

قال: لو أن لك أحدًا في "طهران" أو مدينة أخرى أخبرني حتى أبلغهم، أردتُ أن أعطيه عنوان دكاني وأخي لكني خجلتُ، تخيَّلتُ أنه نتيجة تصرفات أخي، سوف يعلم "فريدون" الذي يعمل ضابطًا علـى الحدود، فيجد "پريچهر" بطريقة ما وأذهب أنا أدراج الرياح. اخترتُ موت "پريچهر" أو أسرها علي يد منافسين مجهولين، علي وجودهـا مع "فريدون"... قلتُ: لا أريد أن تعلم أمي العجوز بمصيبتي ولـيس لها أحد غيري. فأعطاني "جهانشير" عنوان منزل "فضل علي خـان سرتيب" في "تبريز" وقدم لي دعوة إلى هناك.

كانت الفتاة التركمانية تُصر على الرحيل بسرعة، فلم يكن هذه المرة هناك بديل عن الذهاب فلـن يفيـد التـذمر والـضجر، قبَّـل "جهانشير" يدي وقبَّلت وجهه، ثم ذهبوا وبقيتُ أنا وحدي. رأيتُ أنني تجرعتُ آخر قطرة محبة، وأن نصيبي من هذه الدنيا قد انتهـى! لا أراك الله أحدًا على هذه الحالة... نظرتُ وراءهم، لم يكن لدي القدرة

على رؤية ذلك المنظر، كانت أذني تتألم لوقْع أقدام خيولهم، كنت أشاهد قطرات دموعي وهي تقطر على الأرض، وكنت في جدال مع "فريدون" وبخته، وكنت ألومه بحرقة قلبي، قائلاً: أيها الصديق المزيف، أليست هناك سعادة في الدنيا إلا بسواد زماني؟ ألم تكنَ تتمتع في الطفولة بكل الرجولة والطيبة؟ فلماذا إذن أصبحتَ هكذا خسيسًا! هل ندمت علي الأخلاق الطيبة في الطفولة وتنتقم مني؟! أكانت بذور الفساد في فطرتك وبمرور الزمان ارتوت بالماء فصارت حملاً؟! أم كنتَ شريرًا منذ اليوم الأول وكانت حركات المروءة أيضًا على سبيل الغرور والتكبر؟! يا رب تشتعل النار في قلبك من خيانة صديق، فتحرق روحك، ويصبح نهارك مثل نهاري أكثر فزعًا من ليل الموت، ولا يكون لديك إلا الصمت المخيف، فلا صديق ولا معين، يأخذون من تحب من أحضانك في غارة، فلا يبقى لك أمل إلا الموت!

كم هو صعب أن تكون أول خيانة من صديق! تحول الوجه الآسر للصديق إلي شكل قبيح ملوَّث، يثير الدهشة ويشوش الوجدان. صراع هذه الثورة يدمي روح الإنسان، لكن بالتدريج نتعوَّد ويقل هذا التعجب والاضطراب حتى أننا لا نتوقع من الصديق إلا نقض العهد! ويكون أمرا طبيعيا، نقض العهد الذي عقده شخص... المتعة الوحيدة في الحياة وعلاج آلامنا المزمنة، هو لحظة نعاس في روضة المحبة

الوارفة، لكن ماذا نفعل حين نعرف أن سن كل وردة وزهرة سيصبح شوكًا في النهاية، وفي تلك اللحظة التي نطمئن فيها إلى الصداقة ويكون النوم عميقًا، وقد نسينا الدنيا، تغوص بأرواحنا؟! الأسوأ من هذا كله، هو أن الجسد عليه أن يسلم بكل هذا العذاب، يجمع كل يوم غذاء المحبة والصداقة، من أجل الروح!...

حين نظرتُ ورأيتُ أنه لم يبق منهم إلا نقطة سوداء، انتابني حزن غريب. لم أجرؤ أن أرفع عينَي عن تلك النقطة السوداء. كانت كل آمالي هذه النقطة. أردتُ أن أصرخ، لكني كنت كالشخص النائم، فلم يخرج صوتي، أردتُ أن أنهض وأركب الجواد وأذهب وراءهم، فلم يكن لدي القدرة على الحركة، كنتُ باردًا جامدًا كالحجر. حين أفقت من تلك الحالة، كان الجو مظلمًا، شعرتُ أن نفسًا دافئًا يهب من وراء ظهري ويلمس رقبتي. فتجمدت كالعصا من الخوف! تكرر هذا الأمر عدة مرات حتى استقر على كتفي. فنظرتُ بطرف عيني فرأيتُ أنه رأس الحصان! كأن كل قوى الدنيا هبت لمساعدتي، وعادت الروح إلى جسدي الميت، وفي لحظة زال عني كل القلق والخوف. فاحتضنت رقبة الحصان وأخذت أُقَبِّل رأسه وعينه، وكان هو أيضًا يخاف الظلمة ويضطرب خوفًا من الصحراء. فألصق نفسه بي كالطفل الخائف وأخذ يلاطف يدي ووجهي بنَفَسَه الدافئ. بعد قليل من المناجاة ركبتُ، ومشينا. تركتُ له الاختيار، كان يعرف الطريق، ويسير ناحية مسكنه المألوف وأصدقائه، ويحملني.

كانت ظلمة الليل، تزيدُ ما بداخلي من سواد كل لحظة، كأن الهواء أصبح ثقيلاً وكان يضغط عليَّ من كل جانب، أشعر بأيدٍ باردة على جسدي، ويتجسد أمام عيني ألف شكل مفزع، كنت أرى وحش الصحراء الذي يصطدم رأسه بالسماء ويسير أمامي بظهره...

أغلقتُ عيني ولجأتُ إلى أمي، كنت أصرخ أمي الحبيبة، أنقذيني... اقرئي تلك الأدعية التي كنت تقرئينها ليلاً وقت النوم، أنقذيني...!

عندما استرحت قليلاً، فتحتُ عيني ورأيتُ نقطتين تتلألآن كنجمتين مضيئتين في الأفق، تغيب لحظة ثم تلمع لحظة أخرى، تأكدت أنه نور العمران. أسرعتُ وكنت أذهب ناحية الضوء، أردتُ أن ألجأ من خوف الطبيعة إلى أي إنسان حتى ولو كان عدوا.

كنت كلما اقتربت من النور، أبطأ الحصان في السير، حتى توقف دفعة واحدة، كأنه من الحجر لا يرفع قدما عن قدم. كانت أذنه حادة السمع، فسمَعت صوتا يشبه البكاء.

من حركة هذين النورين والمسافة الثابتة بينهما، فهمت أن حيوانًا مفترسًا يأتي ناحيتي. فجننتُ من الخوف والاضطراب، فزعتُ الحصان وصرخت خلف أذنه حتى قفز من مكانه وطار في الهواء، وكان الفضاء قد امتلأ خوفًا من صراخي، كان كل ما لدي من قوة

يخرج مع صوتي، فأثر جنوني في الحصان، هو أيضًا كان يـصهل، ويجري بسرعة الريح حتى تعبنا نحن الاثنين من الصراخ والمشي وتوقفنا، لكن اختفت هاتان العينان المضيئتان.

كان حصاني يرتجف تحت قدمي كشجرة الصفصاف، نزلتُ ودلكتُ جسمه فترة ولاطفته، كنا نسير بجوار بعضنا البعض، ربما تخيَّل أنني أحمله، لكني لم أكنِ أفكر وليس لدي هدف إلا "پريچهر"، وكنت قد تركتُ له الاختيار.

كنت أتحدثُ معه بصوت مرتفع، أقول: ليتني كنت مكانك، ولم أعرف "فريدون"! أو ليتني مثلك من نفس نوعك، ليس لي مطالب، فلا أتأثر من الخلاف أو التقصير، تغلب عقلي على شعوري إلى درجة أنني كنت أعتبر أن اعتماد الإنسان على العقائد والأخلاق المزيفة هو ركوب سفينة بلا دفة والإبحار في البحر، فكل ما ينبغي أن يحسب وتأخذه في الاعتبار، هو الاحتياجات الحالية ومتغيراتها.

أنتم أيها الحيوانات أعقل منا، عيونكم ترى الدنيا أوضح، تعرفون طريقكم من الحفرة، تميزون الصديق من العدو، إذا قصُرت يد ظلمنا وجورنا نحن البشر عن رقابكم تعرفون وراء أي شيء تسيرون، وماذا تريدون. نحن المساكين عميان لا نرى الحقائق، عيوننا على شاطئ بحر طوفان الخيال متحيرة مندهشة ومشغولة بمشاهدة جبال الهواء، أمواج الهوس التي تُصب على رؤوسنا. كنت

أقول أيضًا: هل لديك أنت أيضًا "پريچهر" تحبها وتحترق لهجرهـــا؟ هل قرأتَ درس العشق؟ وهل روحك أنت أيضًا متعلقة بحبال الهوى والهوس بأخرى، ودائمًا تبكي وتذبل من جذباتها التي لا وقت لهـــا؟! أم أنك حر ولا ترتعش من الرياح المعاكسة التي تهب مـــن وجـــدان الآخرين؟! حقًا أنت حر وأنا عبد... ليتني كنت مكانك...

***

أضاءت الدنيا. أخذ قلبي يدق لتصور طلوع الـــشمس، منظـــر الشروق هو غاية الجمال بالنسبة لي، هو آخر مـــا أتمنـــاه، كانـــت الصورة الخارجية أفكارًا أكثر عمقًا وتعقيدًا لخيالاتي الجنونية. نـــور الصبح هو من نفس نوع ذلك النور الذي يشع لوجـــود العـــشق فـــي القلب، هو صفاء الصداقة، هو نسيم بستان المحبة والوفاء، هو صفاء الدمع الذي يتساقط لسوء حظ الآخرين، هو رقة الأنين الذي نظهـــره ندمًا على ما لم نفعل من خير....

قبل الزواج من "پريچهر" كنتُ أستمتع بالكثير من هذه النعم، أنام على أمل رؤية الشروق، عندما أضاء نور العشق حياتي، كـــان ليلي ونهاري صباحا، كنت أرى ضوء الفجر فـــي وجـــه المحبـــوب وأشعة الشمس الممتدة في خيوط شعرها. لكن ذلك اليوم الذي كنـــت أشاهد "پريچهر" في الصباح، عندما يصبح سواد الـــسماء بالتـــدريج زُرقةً، كأن "پريچهر" تفتح عينيها الناعستين بهدوء بوجهي.

ابتسامة الشمس، كانت هي نفسها سعادة وابتسامة "پريچهر" في الصباح. كنا نتحدث معًا، بلغة القلب امتلأت الدنيا برموز عشقنا.

***

بينما كنت على تلك الحالة فإذا برصاصة تصيب الأرض بالقرب مني، كان بعض فرسان التركمان بخيولهم يندفعون من بعيد ناحيتي، ويطلقون الرصاص. فخفق قلبي من الوجد، كأني أحلم فأفسحتُ صدري حتى يكون هدفًا لرصاصة وتصيبني رصاصة بسرعة حتى أموت في أفضل حال، كان هؤلاء الفرسان في نظري ملائكة جاءت لخلاصي ومساعدتي، وصلوا فأيقظوني من هذا الحلم الجميل بالسوط والركل. أخذت أتوسل وألح حتى يقتلوني، أخرجتُ مائة تومانٍ من جيبي وكنت أقول: خذوا هذه النقود مني، وأطلقوا رصاصة أخرى لقتلي. فأخذت الشفقة بقلب أحدهم فأخذ النقود من يدي وسحب سكينًا كبيرًا من وسطه، لكن هذين الشخصين منعاه. كانا يقولان: هذا الكلب ينبغي أن يشتري دمه. فسألني شخص كان أكبر منهم سنًّا: من أنتَ؟ وماذا تفعل هنا؟ كنتُ أحكي ما حدث وأبكي حتى وصلتُ إلى قصة "جهانشير"، فسال الدمع من عيني الرجل الكبير، فقد كان هو والد "جلبهار".

ربطوا ذراعي من الخلف وأجلسوني على حصاني. وربط الرجل الكبير لجام حصاني في سرج حصانه وعاد ناحية "كوخه"، أما

هذان الشخصان اللذان كان واحد منهما ابنه والآخر خادمه، فقد ذهبا يتعقبان "جهانشير" و"جلبهار". لم نكن نسير لفترة وذلك لأنني ضعفت من شدة الألم، ولم أكن أستطيع حفظ توازني على سرج حصاني، فسقطت من على الحصان فشعرتُ بعدة ركلات وضربات بالسوط على جسدي، لم أشعر بشيء بعد ذلك. حين أفقتُ كان الرجل الكبير يقف فوق رأسي بسكين ملوثة بالدم، قال: تصورتُ أنني إذا قطعتُ يدك فلن تستيقظ! رأيتُ فتحةً بسكين في ساعدي والدم يسيل. بكيتُ قائلاً: أيتها الطبيعة كم تتمتعين بآلامي وتعبي، حتى أنك لا تأخذين روحي !...

فقال التركماني: إن الله لا يسمع كلامك الفارغ، فهو الذي أوقعك أسيرًا بيدي حتى آخذ ثواب تعذيبك وقتلك، منحك لي حتى أُقَطِّع كل عضو منك على حدة، فيرضى عني عمر وعثمان، فقتل شخص شيعي يعادل أجر صلاة بضع سنين، خسارة أنني لم أقتل "جهانشير" على طمع النقود فأحصل على ثواب عقوبته هو أيضًا. صرختُ: فلماذا لا تقتلني! ماذا تنتظر؟ كأنه يتحدث مع نفسه، كان يقول: يا رب إذا أمسكتُ "جلبهار" مرة أخرى سأترك هذا الكلب فدية لك، وأسامح في ثمن رأسه!.

مَن هذا الإله؟ وأين هو الذي له مع كل قلب رمز، ويتحدث مع كل شخص بلغة، ويبدو أمام كل عين بصورة واضحة؟! أي إله

عجيب هذا الذي يصفق لظالم ويمحو الدمع من عين المظلوم؟ إنه ليس ذلك الإله الحقيقي، بل هو نتيجة تفكيرنا وعقلنا الطفولي. لقد صنعنا نحن هذا الإله بعقلنا الناقص وأعطيناه شكلنا، فهو ككل ما نصنع ناقص ومتغير. كمثل كل شيء تصنعه يد البشر مليء بالحسن والقبح.

فالتركماني يطلب العفو من ربه، لأنه لم يقتلني، لكنني كنت أتمنى ألا يسامحه الله. سألتُ: أتعرف مَن أخذ زوجتي وإلى أين؟ قال: أخذها بعض هؤلاء لصوص التركمان، لن ترى زوجتك، إلا بعد الموت. كأنني لا أسمع. فقلتُ مرة أخرى: كيف يكون خلاصها؟ فضحك بسخرية، وقال: التركمان لم يعتادوا أن يعيدوا المرأة الجميلة، فالمرأة الشيعية ضرورية لمتعة شبابنا...

غبتُ عن الوعي وكنت أقذفه بصوت مرتفع حتى لا أسمع كلامه. فكان ينهال بالسوط على رأسي ووجهي، لكني تشجعت أكثر وتحمَّستُ وكنت أصرخ وأصِيح. قلت: ابنتك أنت أيضًا لمتعة شباب "تبريز"! كأنني ضربته بحجر كبير في رأسه، فصمَتَ وطأطأ رأسه، بعد أن كنا نسير فترة في صمت، قال: لو تسلمني أنتَ ابنتي، أعثر لك على زوجتك. فجأة برق ضوء الأمل بقلبي، قلتُ: خَلِّص أنت زوجتي، وأنا أعيد لك "كلبهار". فكلانا آمل ومهجور، نتصور أن مفتاح الجنة بيد الآخر. فأصبحنا أصدقاء رحماء. ودون أن أطلب،

أخرج الرجل العجوز خرقة من جيبه وربط جراح ساعدي. سأل: لو حرَرْتك ماذا ستفعل وإلى أين ستذهب؟ قلت: هل نسيتَ القرار الذي اتخذناه؟ أنتَ وعدتني أن تخلص زوجتي، ما دمت لم أجد زوجتي فلن أذهب من هنا، ولكن أكتب حتى يأخذوا ابنتك من "جهانشير" ثم يحضروها. فسُرَّ الرجل وفك قيدي.

***

أثناء الطريق، ظل الرجل يتحدث باستمرار عن "جلبهار"، وأنا لا أنصت، فقد كنتُ ثملاً من نشوة أمل خلاص "پريچهر". ثم صرخ مرة واحدة وكان يقول بصوت منخفض باكٍ: ابنتي، "جلبهاري" جعلتُك كأمي، كنت أمشط شعرك، أضع الكحل في عينيك، لم أضربك مطلقًا، وقريبًا في ذلك اليوم كنت سأقتل زوجتي "عائشة" من أجلك، فتركتِ أنتِ أباكِ المسن وذهبتِ مع ذلك الغلام! "اخص عليك"! من يستطيع أن يُعد لي النرجيلة جيدًا مثلك؟ من يصنع الزبادي والجبن من أجلي مثلك؟! "عائشة" كيف يمكن لها أن تنسج السجاد مثلك؟ خسرت سنويًّا ثلاثمائة تومانٍ، خسارة، لو وجدتك سأقطع أرجلك حتى لا تذهبي من عندي مرة أخرى، ابنتي، حبيبتي.....

كنا نذهب وأنا مشغول بأفكاري، كنت أري أنهم خلَّصوا "پريچهر" وأحضروها. بملابس ممزقة، ووجه محترق من الشمس،

نحيفة وضعيفة، يداها قذرة، حافية القدم، ألقت بنفسها بين أحضاني، ووضعت رأسها على صدري وأخذَت تبكي وتئن وكانت تضمني بذراعيها. وأنا أبلل جدائلها، بدموع عيني، بينما هي تخجل أن تنظر لوجهي، صوتي لا يخرج من الخجل، تقول بصوت منخفض وهي تبكي: "علي" لو تعرف كيف مرَّت بي هذه الأيام، ستغفر لي كل ذنب ارتكبته. لولا أمل وجودك لكنت قد متُّ، يا له من جبل ثقيل حل برأسي، ضحيتُ وبقيت على قيد الحياة من أجلك! ثم أتحدث عن نفسي ثانية، سامحني، من الآن فصاعدًا سأنسى نفسيَ، لن أرى شيئًا ولا أحدًا في الدنيا سواك. رغم الأثر الذي تركته في قلبك بوجودي في منزل "فريدون"، فكل ما أفعل مقابل ذلك الألم لا يساويه. أخطأتُ، ما كان ينبغي أن أذهب إلى منزل "فريدون"، كان لا بد أن أشكو لك منه، لكني ذهبتُ حتى لا ينكسر قلبَك بسبب صديقك الوحيد.

نصحتُه وسرعان ما قَبِل هو أيضًا وندم، كنت أعرف أنني لست جديرة بصداقتك وأنك تحتاج إليه. كنتُ أنا المسكينة أسيرة محو جمالي حتى أنني لم أطلب ولم أستطع أن أقوم بمشاهدة الحُجُب الفاتنة لأفكارك لحظة واحدة، فأنا لم أشاركك حياتك الحقيقية، كان هناك عالم يفصل بيننا، فقلبك مثل طائر يريد رفيقا يحلق معه، وأنا لم أكن أكثر من تمثال بلا روح. كنت تغلق عينك وتطلب روحي من نسيم الصباح وعطر الورد، وتسمع شدو الطيور وخرير الجدول، وترى

الجبل والصحراء في العراء، وتبحث في نور الصباح والسحب البيضاء وتشاهد في القمر والنجوم... لكن روحي المحطمة كانت أسيرة حلقات الجدائل الذهبية وزهرة النرجس الثملة والشفة الياقوتية والأسنان اللؤلؤية، ولم أكن أرى شيئًا إلا لون ونقش الحرير الأطلسي، وقد قتلتُ الطائر الطليق في قفص الماديات الضيق. حقًا يا "علي" يا حبيبي، لم أكن أكثر من رسومات أطلال وصنم بلا روح، ولم أستطع أن أحلق معك في عالم فكرك اللامحدود والجذاب، لم يكن لدي جدارة العشق، لو كنتُ عاشقة حقيقية مَا احتجتُ إلى نفاق الآخرين، وما استوليتُ على قلب "فريدون"، ومَا كنتُ أنا وأنت أسرى في هذا الزمان، حبيبي "علي" لتكن أنت عظيمًا وتقبلني مرة أخرى في قلبك، أتمنى أن أجبر ما فات، فكن رفيقي...".

أضاءت الشمس في عيني، لتصور هذا الاعتذار، نسيتُ الإساءة، لم أكن أرىَ شيئًا إلا "پريچهر" البريئة الودودة. كنت أقول: أنا المذنب لأنني عَرَّفْتُ "فريدون" بكِ، يجب أن أتحمل أنا كل حزن وألم، يجب أن تكوني أنتِ عظيمة وتسامحيني...

كنت أمشي بهذه الأفكار المجنونة، ولولا قوة هذه الأفكار، لتنبَّهتُ لنفسي وكنتُ قد متُّ من آلام جسدي. كانت الشمس تصب النار على العالم، والأرض والسماء مشتعلتين ملتهبتين، وربما تصبح الجبال والهضاب الآن كلها ماءً جاريًا!.

عندما وصلنا إلى نبع ماء وظل شجرة، شربنا ونمنا. رأيتُ حلمًا بأن التركماني تركني وذهب! فزعت من النوم خائفًا، وكان التركماني نائمًا، أردتُ أن أهرب، فلم أستطع أن أترك "پريچهر" وأُخَلِّص نفسي، فأيقظتُ التركماني، أكلنا خبزًا ومشينا.

عندما وصلنا إلى المنزل، قيَّد الرجل المسن قدمي بالجنزير وأغلقه حتى لا أستطيع أن أرفع قدمي عاليًا. جاء نسوة "ابه" لرؤيتي وعطفْنَ عليَّ، ولم يعجب "عائشة " زوجة "سردار" هذا الاهتمام، كان ذلك أحيانًا يؤدي للنزاع ، بعدها عرفتُ أنها كانت تغار.

كان كل حديثي أنا والرجل المسن عن "پريچهر" و"جلبهار"، كنتُ أعِدُهُ في اليوم مائة مرة بأنني سأُخلِّصها.

هكذا كان أسير محبة الأولاد، حتى أنه كان يرى نفسه أسيرى ومسكين بيدي، ولم يختاروني لعمل كباقي الأسرى، حتى أنهم أحيانًا كانوا يلاطفونني، قال: لقد قيَّدت قدمك، حتى لا تهرب وتأخذ حلمي معك. بسلطان العشق يصبح الحيوان المفترس مستأنسًا وقلبه القاسي كالشمع الطيع. كان يقول: ذهب ابني "الله وردي" خلف "جهانشير" و"جلبهار"، حين يأتي أرسله حتى يجد زوجتك، لكن لو لم يُحضر "جلبهار"، فينبغي أولاً أن تُحضر ابنتي هنا حتى أعطيك زوجتك، أنا أيضًا كنتُ أعطي الوعود بلا تريُّث، في ثورة العشق والألم هذه، وأقبل أي شرط. بعد ثلاثة أيام، جاء "الله وردي" ومعه جملان

وبعض البغال غنيمة، لكنه لم يصل إلى الفارِّين، فهدأ بالي، لأنني رأيتُ أنهم لا يزالون في احتياج لي، ومن الممكن أن يفعلوا شيئًا لخلاص "پريچهر".

قال الرجل العجوز: غدًا سيذهب "الله وردي" إلى بعض التركمان ويشتري "پريچهر" ويحضرها معه، اكتب أنت حتى يحضروا "جلبهار" لي، ويرسلوا لك أموالاً كثيرة لتشتري حياتك أنت وزوجتك.

ليس لدي حيلة إلا كتابة الورقة، كتبت كل ما استطعتُ من شرح للأحداث الدامية، وأوصيت بإعداد وسائل عودة "گلبهار"، وإرسال الأموال، ثم وضعتُ عنوان أحد الأعمام يعمل بالتجارة في "تبريز" على المظروف.

يا لها من ليلة صعبة مرت بي، كنت أتخيل أنهم أخذوا "جلبهار" من "جهانشير"، ثم أعادوها، وكانت تذرف دموع الندم وتتألم تحت سوط الأب، وتقول لي: أنت فعلتَ ذلك، لقد رددت جميل محبة "جهانشير" كما ينبغي، عفارم على قلبك الطاهر.

كنت أضغط رأسي بين يدي خجلاً، حتى أُخرج هذا الفكر من بالي، كنت أقصد أن أتذرع بحُجة وأسترجع الرسالة وأبدلها أو أرسلها إلى عنوان شخص مجهول. فكان تصور خلاص "پريچهر"

يغلب على وجداني ويسكته، رأيتُ أنه لو غرقت الدنيا، سأوصل سفينتي إلى الشاطئ، ولن أتكلم!.

***

لم تكن "عائشة" زوجة الرجل الكبير هي أم "جلبهار" و"الله وردي"، ولم يكن لها أولاد، وقد مضى من عمرها خمسون عامًا تقريبًا، من قبح شكلها لم أكن أستطيع أن أنظر إلى وجهها أكثر من مرة واحدة، كان مليئا بالتجاعيد والنتوءات، وشبيها بطشت من الشمع الأصفر الذي تجمَّد في حالة غليانه وفورانه، كانت إحدى عينيها أيضًا عمياء، منذ اليوم الأول وهي تظللني بعطفها، ولم تكن تمنع نفسها من إظهار كل أنواع المحبة والعشق، فحين لا يكون الرجل المسن موجودًا كانت تأتي وتجلس بجانبي وتشكو من زوجها، تقول إنه يضربها بالعصا من أجل "جلبهار"، وإنها فقدت عينها من ضربة سوط. كانت سعيدة لرحيل "جلبهار"، وتندم لأنها لم تذهب مع "جهانشير". طلبَت مني ألا أكتب الرسالة، ولا أفعل شيئًا من أجل عودة "جلبهار"، تقول: إنك لن تجد زوجتك مرة أخرى، خذني واهرب، فكنت أرتعد لسماع هذا الاقتراح.

في الليلة التي كتبتُ فيها تلك الرسالة، كانت "عائشة" خائفة مضطربة وتنتظر إليَّ بنظرات مليئة بالمعاني، صباح الغد حملوا

الرسالة إلى المدينة، أرسلوها بواسطة البريـد، وذهـب "الله وردي" للعثور على "پريچهر"، كنت أخجل من تـصور إعـادة "جلبهـار"، ويمتزج شوقي لرؤية "پريچهر" بالحزن.

ذهب الرجل المسن وراء عمله، وبقيـتُ أنـا وحـدي، كنـتُ مضطربًا متحيِّرًا لأنني أعتبر أن حديث "عائشة" هو فتح عظيم، علـى عكس كل يوم، انتظرت أن تأتي بشوق وتقول كل ما تريد، لعل قلبـي يهدأ. فكانت تأتي وتذهب دون أن تنظر إليَّ، فهمتُ أنها تغيَّرت بسبب ما اتخذته لعودة "جلبهار"، أصبحتُ مسكينًا فناديتها. كانت تتمتم وتقول ما لا يليق. توسلتُ وطلبتُ، قلتُ: ألم نقرر سويًّا أن نهرب؟ فانفرجـت أساريرها لسماع هذا الكلام واقتربت مني، أمسكت يدي وقبَّلت وجهي، كأني لمست ضفدعة! كانت تصرّ أن نهرب في نفس الليلة.

ثم أخرجَت الرسالة التي كنت قد كتبتها لـ"تبريز" من جيبهـا! فانعقد لساني من التعجب والشوق! قالت: تتصور أنني سأدع "جلبهار" تعود مرة أخرى! لقد أخرجتُ رسالتك صباح اليوم من خُرج الخادم، سيعتقد أنها ضاعت، لكنه من شدة الخوف لن يجرؤ على قول ذلـك لـ"سردار"، اعلم أنه لو عادت "جلبهار" فأنا سأقتلك أنتَ وهي، كانت "عائشة" بالنسبة لي مَلاكًا جاء ليداوي روحي المتعبة، فإذا بوجهها في نظري لطيفًا وجميلاً، فأخذتها بين أحضاني دون وعي وقبَّلتها. مزقتُ الورقة وأطلقتها للريح، كأن الريح التي حملت أجزاء هذه الورقة قـد حملت معها آلامي ومتاعبي. "عائشة" المسكينة لا تعرف فيمَ أفكـر،

تعلَّقت بي، وكانت تصر على الهرب، تقول: دع خيال العثور على زوجتك من رأسك، خدعوك، كانوا يريدون أن تكتب تلك الرسالة! لقد ذهب "الله وردي" ليبيع البغال ويعود في نفس اليوم.

تأكدت أن "عائشة" قد اختلَقَت هذا الكذب لأستعد للهرب، فكنت أضيع الوقت في ردودٍ بلا معنى، وأذكر لها صعوبات الهرب، فتغيَّرت وحزنت، نهضَت من جانبي تؤدي عملها. كانت بذور الشك التي زُرِعَت في ذهني تنمو، كل ساعة تبدو عامًا، كنت أخشى أن يعود "الله وردي" بسرعة فيصبح كلام "عائشة" صحيحًا! مضى ذلك اليوم والليلة ولم يأتِ "الله وردي". سُرِرْتُ على أمل أن أقضي الليل أتحدث مع العجوز، كان يسأل: بعد كم يوم ستكون هنا "جلبهار"؟ كان لساني في البداية كالعجلة التي تعمل حديثًا بتلفيق الكذب، بالتدريج تعوَّد، فكنت أنسج القصص لتهيئة عودة "جلبهار"، والتي ستتم على يد عمي، وأختلق الأكاذيب التي تبعث على تعجبي، وكان العجوز لا يستقر داخل جلده من السعادة. اطمأن باله وفقد تحفظه، قال: حين تعود "جلبهار" لو لم يكن معها "جيران"، آخذ منك ألفي تومانٍ وأطلق سراحك، وإذا أحضرت الحصان، تدفع ألف تومانٍ فقط.

مرَّ بخيالي لو أن كل ما قالته "عائشة" كان صحيحًا، لتحرَّر قلبي. قلت: لو أعطيتني زوجتي في يدي أدفع كل ما تطلب، فضحك ضحكة طويلة، وقال: كيف لي أن أعرف في أي مصيبة زوجتك!

فاضطربتُ من هذه الخيانة والوقاحة حتى كدت أنهض وأقتله. لكن هذه الحالة لم تستمر أكثر من لحظة، وجدتُ أنني أيضًا كاذب وخائن... فلم يعد لديَ حيلة سوى الهرب.

***

صباح الغد جاء "الله وردي"، وكان بمفرده.... سألته ماذا علمتَ عن "پريچهري"؟ فكان يضرب ظهري باستهزاء بالسوط ويسخر مني قائلاً: زوجتك في الخُرج، الآن سأُخرجها، فكنت ألح وأصر قائلاً: لا تمزح، فتلفَّظ بألفاظ نابية عن "پريچهر"... فقدت وعيي، فسحبته من فوق حصانه إلى الأرض، وكنت أضربه على رأسه ومخه، أخذت السكين من قبضته، كنت مستعدًّا للضرب حين وصل كل من الرجل المسن و"عائشة" باعدًا بيننا. كان "الله وردي" كالحيوان المفترس، كان يكشر عن أنيابه وعينيه ويزأر. رأيتُ أنا في ذلك اليوم الإنسان الوحشي، ولن أنسى ذلك المنظر، ودائمًا أرى نفس الصورة، وراء تصرفات ومعاملة الإنسان المتحضر.

حينما توقف زئير "الله وردي" ورجع عن تلك الحالة المتوحشة، سمعتُه يقول بصوت مقبوض غاضب وكأنه رسالة الموت ترن في أذني: أنتَ مجنون تتخيَّل أنني أذهب لأحضر زوجتك؟!... يا لك من أحمق! أنت ستبقى هنا حتى تأتي "جلبهار"، عندئذ ينبغي أن تدفع ثلاثة آلاف تومانٍ وتذهب وإن لم تفعل قطعتُ رأسك!

أخذ الرجل المسن يؤيد كلامه ويكرره مع شتائم كثيرة، قيَّدوا يدي من الخلف ووضعوا حبلاً متينًا حول رقبتي، وربطوا طرفه في كوخ "الله وردي". الطريق الوحيد للنجاة هو الهرب مع "عائشة"، لكن وجودها سيكون قيدًا بقدمي، أين يمكن أن أذهب وهي معي؟ وماذا أفعل؟ فكنت أفكر أن أتركها في الصحراء وأذهب وحدي. تضايقتُ من هذه الفكرة، وفزعتُ من سوء خلقي. واصلتُ الليل بالنهار بهذه الأفكار المؤلمة، كان "الله وردي" لا يزال نائمًا حين ركب الرجل المسن حصانه وذهب. كانت عيني تذهب وراء "عائشة" كالقط حين يراقب حركات الفأر، وهي مشغولة بأعمال المنزل.

عندما نظَرَت ليَّ جال بخاطري كل ما في قلبي بنظرة باكية، وأشرتُ أن اقتربي، أدارت لي ظهرها وذهبت وهي تتمتم ثم عادت ثانية. فقلتُ بصوت منخفض: اقتربي، ليَّ معك شأن. فكانت تسبّني بصوت مرتفع قائلة: "لتنتظر زوجتك، مجنون، لا بد أنك تريد مني أن أذهب لأحضر زوجتك! أنا لا أحب هذه الطيبة!" حدث لها هياج من كلامها وارتفَع صوتها أكثر. فاستيقظ "الله وردي" من النوم على هذه الجلبة وجاء وسدد لي عدة ركلات شديدة في صدري حتى قطع نَفَسي، كنت ألتوي على نفسي من شدة الألم وأقول: أمي الحبيبة، أمي الحبيبة. وبلغة القلب أئن قائلاً: يا أمي الحبيبة، ألا ترى عين محبتك ما يحدث حتى تأتي بي إلى هذا العالم، ألا تحبينني؟ لماذا ربيتِني

على هذا الدلال ورققتِ قلبي بكل حب الأمومة؟ ألديك عداء معـــي؟! لماذا تركتِني وحيدًا وذهبتِ؟ نعم ذهبتِ لأنك كنت تعلمين أنـــكِ لـــن تستطيعي أن تحفظيني من سوء الحظ طوال عمري، ألم تصل قوتِــك إلى الدنيا، تأكدتِ أن قبضة الطبيعة كالصياد ســتجرني إلـــى الـــدم، ليست لديكِ القدرة على رؤية هذا المنظر، ذهبتِ لكن كم كان جمــيلاً لو كنت أخذتني معكِ!

حين يشتدّ طوفان البلاء، يسحب آخر شموع القلـــب، ويُطفـــئ كل العواطف والأحاسيس الجميلة. كانت روحي تتألم كثيـــرًا حتـــى استراح ضميري لمراقبة حال "عائشة"، لم أكن أفكر إلا في الفـــرار، ومن أجل هذا الهدف، لم أكن أهتم بـــ"عائشة" أكثر من كونها وســـيلة وآلة من الجماد.

كنتُ أراقب تحركاتها كالعاشق المفتون، كان صوتها يعطينـــي البشرى بالخلاص، لكنها كلما كانت ترى أنني أحتاجها أكثـــر تتـــدلل أكثر، ولم تكن ترد على أمنياتي وألمي إلا بالقذف والسب.

انتصف النهار، عندها جاءت "عائشة" وألقَت أمامي بضع قطع من الخبز. قلت: لو كنت تريدين أن آكل ولا أموت فأطلقي يديَّ، لـــم ترد، ودخلت الكوخ، وقالت لـــ"الله وردي" اذهب وفك يده. فقال لـهـــا "الله وردي": فكِ أنتِ قيده بنفسك، دعيني أستريح. قالـــت "عائـــشة": أعرف لماذا لا تذهب، تخشى أن تطلقه فيدقّ رأسك ومخك كالأمس.

فثارت غيرة "الله وردي"، وقذفني أنا و"عائشة" بما لا يليق، وخرج من الكوخ حتى يطلق يدي. فنظرتُ بغضب وقلت: فك حتى أعطيك الرد! كنتُ أقوى منه كثيرًا، وقد أدرك هذه الحقيقة في اليوم السابق.

عاد إلى الكوخ وقال لـ"عائشة": إذا اقتربتُ من هذا الكلب سأريق دمه! فهقهت "عائشة" وأخذت تردد: أتخاف، تخاف؟!

فصفعها عدة صفعات قوية فارتفع عويلها، جاءت باكية وأطلقت يدي. فقبّلتُ وجهها. لم تمتنع، فكررتُ، لم تتحدث! قلتُ: متى تريدين أن نهرب، فذهبت ولم ترد. أصابتني حالة من الاضطراب لا توصف بسبب حرب اليأس والأمل. كلما لاحت لي الفرصة كنت أشير إلى "عائشة" بهذا الرمز الذي بيننا، فكان قلبي يخفق من السعادة.

***

كنت أتمدد خارج الكوخ أراقب ظلمة الليل وأنتظر "عائشة" حتى تخرج من الكوخ، كنتُ منقلبًا حتى أقرض الحبل الذي حول رقبتي، فقد كان ضعيفًا إلى درجة أنني أمزقه بسهولة. رأيتُ أنه لا يفيد، فأنا لن أستطيع أن أفك جنزير قدمي، كانت آلامي تشتد لهذه الحركة دون داعٍ! ومن شدة خوفي من قهر وعذاب الغد، كنت أفكر أن أوصل نفسي وأنا مقيد القدمين بالجنزير إلى الحصان وأهرب،

لكنني رأيتُ أنه أمر مستحيل! كنت عاجزًا يائسًا، فجأة شعرتُ بيد توضع على قدمي، كانت "عائشة"! وضعَت إصبعها على فمي حتى لا أتكلم. فتحَتْ القفل ورفَعَت الجنزير عن قدمي، نهضتُ ومشيتُ وراءها. كنا نسير حتى ابتعدنا عن العمران، وكان هناك حصان بالسرج مرابض على الأرض ومقيَّد، قالت: أسرع واركب وخذني وراءك، ركبتُ وحدي ودون فكر أو تأمل، سحبتُ الرِّكاب، كانت "عائشة" تصرخ وأنا أعدو مسرعًا...

لم أكن أعرف إلي أين أذهب وماذا ستكون العاقبة. وحين تعبتُ من العَدو تركتُ الاختيار للحصان، أزحتُ الكتف لحظة من تحت حمل الفكر والبحث عن وسيلة. شروق الشمس وشعور الحرية أخذاني لحظة من نفسي، وكنتُ قد نسيت طلبهم ووجودهم المُلِح وأمشي ببطء.

بعد قليل، سمعتُ وقع أقدام حصان، رجعتُ فرأيتُ بعض الأشخاص يَعْدون ناحيتي بخيولهم! فأخرجتُ جناحًا وفررت كالأرنب الهارب أمام كلاب الصيّد، ارتفع صوت إطلاق الرصاص، كانت الطلقات تمر باتجاهي! فجأة ظهر بعضهم من فوق هضبة عالية من الناحية المقابلة، كأنهم كانوا ملائكة رحمة لي، سأقتل الحصان ونفسي حتى أصل أسرع إلى هؤلاء الفرسان، فجأة شعرتُ بضربة شديدة في ساقي لكنني كنت أمشي.

بالتدريج قلَّت حركة الحصان، كنت أسمع وقع أقدام الخيــول يقترب كل لحظة، ومهما كنت أحاول الحركــة وأضــرب بالركــاب والسوط، دون فائدة. بعد لحظة انزلق الحــصان وأخــذني لأســفل. خلصتُ نفسي بكل صعوبة وجريتُ عدة خطوات، ثم وقعتُ من شدة ألم قدمي. كان الفرسان يأتون من أمامي ويهاجمونني لكن كانــت لا تزال هناك مسافة طويلة فاصلة حتى يصلوا خلفي! فرأيتُ سيف "الله وردي" الذي يلمع في الشمس يستقر في جبهتي، ولم تعد عيني تــرى أي مكان.

***

حينما أفقتُ رأيتُ رجلاً قوي البنية بعمامة كبيرة مثبــت بهــا قرن حيوان يجلس عند قدمي، كان يخرج زجاجة وقطعة قماش مــن جعبته ويربط قدمي، تنبَّهتُ إلى أنهم ربطوا الجُرح الذي في جبهتــي أيضًا. لم يكن ينظر إلى وجهي، نسيتُ آلامي من الدهشة وكنت أنظر حولي. لم يكن كوخ "الله وَردي" والقائد "عثمان" بل له شكل مــدني، وكان الرجل الذي ربط لي جُرحي طويل القامــة، ذا لحيــة طويلــة سوداء. لونه أحمر كالنحاس، كالشعوب البيــضاء حــين تتعــرض جلودهم للشمس!

قلتُ: مَن أنتم؟ وأين أنا الآن؟ نظر إلــيّ، فرأيــتُ أن عينيــه زرقاء. قال بعد فترة تأمل قصيرة: لا تخف لسنا تركمان، اطمئن، أنا

تاجر من "بخارا"، اسمي "سرفراز خان"، فليطمئن بالك، ولا تتحدث حتى تطيب أسرع. أردت أن أقول شيئًا، فوضع إصبعه على فمي وقال: اصمت.

غبتُ عن الوعي، وحين فتحتُ عيني، رأيتُ زجاجة صغيرة مربوطة تحت أنفي، قال: هاجمتك الأزمة القلبية مرة أخرى، لا تتحدث وإلا تصبح حالتك خطيرة.

كان "سرفراز خان" ينام في نفس الكوخ الذي كنت فيه، يستيقظ من النوم في الليل ويأتي لينصت لضربات قلبي، في الأيام التي يخرج فيها، كان يختار أحد التركمان ليُمرِّضني، لكني كنت أموت من الخوف والاضطراب حتى يأتي، كلما كنت أريد أن أتحدث مع التركماني كان لا يرد، ويقول: أمر "خان" ألا أتحدث معك.

كان التاجر البخاري غالبًا مشغولاً بالقراءة، رأيته ذات مرة يكتب لكنه يكتب من الشمال إلى اليمين، تعجبت ودققتُ في حركاته وسلوكه، كانت رأسه في الغالب عارية، يغني الألحان الأجنبية مع الصفير ويرفع كتفه لأعلى ويؤدي الحركات الأجنبية، لكنه كان يتناول طعامه بكف يده كالتركمان، ويقلب كوب الشاي الذي يشربه ويتحدث مع خدمه بنفس اللهجة الخشنة لقائد التركمان!

رغم أن ألعابه قد دخلت عليَّ، لكني تأكدتُ أنه أوروبي، أو أنني كنت أتمنى من الله أن يكون هكذا؛ لأنني أرى أن خلاصي

في ذلك، كنت أتمني أن ألجأ من شيطان الخوف إلى ملائكة التحضر، وإن كنت بعد الحرب العالمية الثانية ليس لديَّ شك في أن التحضر الأوروبي بلا معنى ولا أساس. كنت أعتبر أن تلك المجزرة التي لا مثيل لها نتيجة ذلك التمدن الناقص الخاطئ، وكان قلبي يرقّ للفكر الصافي ومحبة القلوب الأسيوية الطيبة. كنا نتحدث مع الأصدقاء عن الرحمة وحُسن الضيافة، وكنا نفضلهم ألف مرة عن الأوروبيين أصحاب الحضارة المادية عابدة الدنيا، فكنا نقول: واحسرتاه على حالنا، نريد أن نترك هذه الحياة المريحة ونقلد الحضارات الدامية.

نتوقع أن يكون الأوروبيون ملائكة، ولأنهم ليسوا ملائكة، فإننا نعتبر أنهم أكثر احتقارًا من سكان البدو عندنا، ويتضح خطأ هذا الحكم نتيجة معاشرتي مع " الله وردي" والآن أعرف أن الهمجية هي الظلمة، والحضارة هي النور، ونور هذه الحضارة التام لا يزال ضعيفًا حتى أنه لم يضئ الجوانب المظلمة في قلوب البشر.

صحيح أنني تأكدت أن "سرفراز خان" أوروبي، في الصباح، صممت أن أقول له ظني وأسأله عن بعض الأشياء، أثناء ذلك دخل الكوخ رجل نحيف أسود اللون بعمامة وملابس من "بخارى"، وبيده خُرج صغير، وقعَتْ عيناه عليَّ فتعجب.

فقال له "سرفراز خان" باللغة الإنجليزية: "لماذا عدتَ متأخرًا يومين؟" من فرط السعادة، كانت أنفاسي تتلاحق.

فأجاب الشخص الآخر بلهجة واضح أنها ليست إنجليزية قائلاً:

إن الأمر كان صعبًا جدًا. جاء "جنرال كورسوسكي" شخصيًا إلى المكان، ومن المقرر أن يحاكموا "جاكسن" غدًا، ولم أستطع أن أحصل على الرسائل بعد، كان "پالكونيك خوتسو" يقول: إن أخذ الرسائل ليس مشكلة، لكن ينبغي أن نضع أوراقًا أخرى باللغة الإنجليزية بدلاً منها، ما دامت هذه الأوراق ليست جاهزة فلن أستطيع أن أسلّم الرسائل؛ لأن حياتي ستكون معرَّضة للخطر. لم نستطع تجهيز هذه الأوراق وتحويلها لشخص آخر إلا عن طريق "جاكسن"، لهذا ينبغي أن نوصل لـ"جاكسن" ورقة وقلمًا في السجن. "دنيكين" قائد حرس السجن إنسان وطني بمعنى الكلمة، ونحن مطمئنون إلى أنه لن يقبل اقتراح الخيانة مطلقًا، بل على العكس، لو علم بأفكارنا، لأصبح الأمر خطيرًا. فكرنا كثيرًا ولم نصل لحل. حتى اقترحتُ في النهاية أن "پايف" القائد الآخر لحرس السجن حين تكون نوبته في الحراسة، يتمارض وأهرب أنا، ولأن "پايف" مريضٌ فسوف يكون لديه العذر عن عدم تعقبي، وعلى هذا لا بد أن "دنيكين" قائد الحرس سيكون مكلفًا بالقبض عليّ، وسيجلس "پايف" مكانه، وسوف يتم ما خططنا له، لم تمضِ ساعة حتى بدأنا تنفيذ هذه الخطة، "دنيكين" أسرني في الخامسة، وأخذني عند "پالكونيك خوتسو" كان يستجوبني حتى الساعة الحادية عشرة، وعندما أزلتُ سوء الظن وتحررتُ، في تلك الساعة حين انتهت نوبة حراسة "دنيكين"، عاد إلى منزله.

وصلَت أدوات الكتابة إلى "جاكسن" والساعة الرابعة بعد منتصف الليل كانت بعض الأوراق قد كُتبت وأُعدَت. فوُضِعت بدلاً من الرسائل الأصلية، فأخذتُ أنا تلك الأوراق وأحضرتها.

تحدثوا فترة عن هذه الأوراق وأنا ولو لم أعرف الموضوع، فهمت أن "سرفراز خان" ليس تاجرًا بخاريًّا فقط، بل يعمل أيضًا بالسياسة.

حين انتهى ذلك الحديث، قال "سرفراز خان" فِي رده على سؤال ذلك الآخر يتعلق بي: "كنا نعود من...، فرأيت على بُعد فرسخ راكبًا يعدو ناحيتنا فتعقبه البعض، فارتفع دوي الرصاص، تزحلق الحصان والراكب، وهو نفس هذا الشخص الذي يرقد هنا، لكن هؤلاء وصلوا أسرع مني وجرحوا جبهتَه بالسيف، كانوا يقولون إنه من عمال القرى ويستأجرونه كل عام، وقد سرق حصانًا وهرب. كنت مستعدًّا لأن أدفع مائة تومانٍ قيمة الحصان ويتركوه لي فلم يقبلوا ذلك، وطلبوا ألفي تومانٍ! في النهاية تقرَّر أن أعالجه ثم أسلمه لهم، لم يكن لديَّ حيلة إلا القبول؛ لأنه ينبغي مراعاة العادات المحلية، وبقِيَ هنا اثنان من التركمان حتى يأخذا هذا المسكين...

* * *

نهضتُ من المكان وقلتُ باللغة الإنجليزية من أجل رضا الله، من أجل الحضارة، خلصوني من هذا الهلاك، لا تتركوني في يد هؤلاء البهائم، أنا لستُ عاملاً قرويًّا، أنا مدني مثلكم، وقد أصبحتُ أسير هؤلاء اللصوص. لو علمتم كيف عاملوني ستحررونني مهما كانت التضحية. سأدفع أي مبلغ يلزم، ولا تتركوني...

غضبتُ لحالة الدهشة ونظرة الحيرة لهذين الشخصين وسكتُ، فسأل "سرفراز خان" هل سمعتَ كل ما قلنا؟ قلتُ: نعم سمعتُ كل ما قلتم، معجبٌ بكم لإتمام المهام الوطنية وأعتبره مقدّسًا...

فقال ذلك الرجل الأسود: الشخص الذي سمع هذا الكلام لا ينبغي أن يبقى حيًّا، قلتُ: نعم، اقتلوني واجعلوا روحي أنا وزوجتي المسكينة فداءً لجنون قتلة البشر، وليكن الذنب ذنب الوطنية. لستُ مذنبًا لأنني أسمع، وأعرف الإنجليزية، وسقطتُ هنا مريضًا، و كانت الغفلة منكم. فلماذا تقتلونني؟ هل ينبغي أن أتحمل جزاء أعمالكم؟ لو لم تؤثر هذه الكلمات فيكم، فأعطوني الأمان حتى أخلص زوجتي من قبضة هؤلاء الوحوش، أقسم بشرفي إنني وطوال حياتي، لن أفشي كلمة واحدة مما سمعتُ... وانهرت من شدة الاضطراب والتوتر.

حين أفقتُ كان "سرفراز خان" يجلس على وسادتي، قال: أين تكون زوجتك أسيرة؟ ومن أنتم؟ فعرّفته بنفسي وحكيت له بالتفصيل، كأنني أتحدث مع تمثال، لم أرَ أثرًا على وجهه. بعد أن سكتُ، نظر

لي لحظة وقال: قَبِلتُ وعدك بإخفاء تلك الموضوعات التي سمعتها، لكن كان من الأفضل أن تتبِّهنا منذ البداية أنك تعرف الإنجليزية. أردتُ أن أجيب، لم يعطِ فرصة وخرج. لم تمضِ ساعة، حتى جاء وقال: لقد أرسلتُ الشخصين التركمانيين اللذين كانا هنا لأخذِك بألفي تومانٍ، وسأقوم ببعض الأمور للعثور على زوجتك.

أتى برجلين تركمان من فرسانه وطلب مني أن أحكي القصة لهما وأن أعطي لهم أوصاف "پريچهر". فقلتُ كل ما كان ضروريًا، وكتبت ورقة بهذا المضمون وأعطيتها لهم حتى يوصلاها:

"حبيبتي پريچهر"، كم لديَّ من روح قوية لأنني ما زلت حيًّا، لكن احترق كل شيء سيئ كان في حياتي بنار هذه المحنة، والآن أنا مستعدٌّ وطاهرٌ ونقيٌّ من أجل عبادتك، ولا أريد شيئًا إلا أنتِ، كل الآلام التي عانيتها أغفرها للدنيا شكرًا على نعمة وصالك. أعرف كم عانيتِ، متى كنتُ أنا بعيدًا عنك، فلن تمَسّك شوكة إلا وغاصت بقلبي. يشرح حالك كل ليلة اللون الشاحب للقمر، وأحصي قطرات دموعك بالنجوم، وأسمع أنينك المحرق للروح مع نسيم الصباح. تذكرين، حين كنا حديثي الزواج، وفي فصل الربيع، كنا نتنزه في الصحراء مستمتعين سعداء، وجعلنا الجبل كالأب العجوز حين يشيب شعره لكنه لم ينس الشباب، وعادات النوروز، فهو يكتسي بعباءة خضراء ويرابض على أربع، يقول لنا تعالوا مارسوا العشق بأطرافي. كنا سعداء بما نفعل من مزاح. هل تذكرين حين رفعتِ

العباءة من على رأسك وكنا نمشي وقد اتكأتِ عليَّ، ثم توقفتِ مرة واحدة ومددتِ يدك الجميلة إلى الجبل وقلتِ: أيها الشيخ العجوز، اشهد بأنني أعطيتُ روحي وقلبي لـ"عليٍّ" ولن آخذهما منه ثانية. ابتعدت أنا عنك لاإراديا حتى أشاهدكِ جيدًا، فبعثر الريح جدائلك، فكانت كل شعرة منها خلف شعاع الشمس، التصقت الملابس على جسدِك من هبوب الرياح فكان قدُّكِ الرقيق الممشوق مغزلا من العاج الذي نسجت يد الزمان عليه الحرير، وتستخدمه من أجل نسج عباءة فيروزية لي، كانت عيناك قطعتين من السماء، قد منحتهما الطبيعة صانع التماثيل... لا أستطع أن أقول كم كنت جميلة في عيني، كنتِ ملاكًا هبط من السماء، فقلتِ: كم هو طيب هذا العجوز، أرى أنه يستمتع بعشقنا رغم شكله الجامد، ليت له لسان، ما أجمل الحديث حين يتكلم.... أنا أيضًا أكتب هذه الورقة، وأنا أجلس أمام رجل كبير لا يقل في وقاره وعظمته عن ذلك الجبل، أرى صمته من وراء شكله الثابت وفي عمق عينيه، إنه يحب عشقنا، لكنه لا يتحدث. هذا العظيم هو الذي سيمنحنا النجاة، سأقول لك التفاصيل في المقابلة، قدمي مصابة بطلق ناري، وجبهتي مجروحة وإلا أتيتُ بنفسي، حاملي هذه الرسالة سيخلصونكِ ويحضرونكِ، لينتهي الليل المظلم لفراقنا، تعالي نتخذ من بقية العمر عيدًا.

معبودك المهجور

"علي"

في الأيام الأولى بعد ذهاب الفرسان، كان قلبي مضيئًا بالأمل، كنت أغني كل وقت أكون فيه وحيدًا، وفي الخيال أستمع إلى عزف "پريچهر" على البيانو، عاهدت نفسي أن أغني مع ألحانها كل وقت هي تريد، حتى ولو كنت متعبًا ولا أتدلل.

بينما كنتُ مشغولاً بالفرجة على حجاب الوصال الفَتَّان، هاجمتني فجأة ذكريات الماضي والظنون المظلمة. فكنت أحسد طبيعة "پريچهر" التي تنسى كالأطفال بعد دقيقة واحدة كل شيء تمامًا وتنشغل وتسعد بكل ما تراه! على العكس مني، ففي ذاكرتي دفاتر منظمة ومرتبة، وأسجل أصغر الحوادث فيها. لم أستطع مطلقًا أن أمحو صفحة أو سطرًا من تلك الدفاتر! فمنظر حجرة مكتب "فريثون" لا يفارق عيني.

مع هذا، فقد كنت سعيدًا لتصور وصول "پريچهر"، ويتحسن حالي كل ساعة، وتلتئم جراحي، واستطعتُ أن أسير ببطء. بعد عدة أسابيع، اغتسلتُ وتخلصتُ من تلك القذارة والتلوث الذي كان أشد عذابًا عليَّ، وارتديتُ ملابس تركمانية جديدة، ونظرتُ في المرآة فرأيتُ أن عيني اليمين مغمضة قليلاً، بسبب الجرح الذي أصاب جبهتي وحاجبي.

كانَ جديرًا بي أن أتأثر لأن الإنسان يتمنى أن يكون جميلاً ويخاف من القبح، ما أكثر أن يفضل جمال الجسم على جمال الروح. لكني تخيلتُ أن ذلك الجرح، سيجعلني أكثر حبًّا في عين "پريچهر".

مضت أيام عشر، ولم يصل أي خبر، كنت أزداد اضطرابًا وأنينًا كل يوم أكثر. تحدثت مرة أو مرتين مع "سرفراز خان" بشأن هذا الأمر، كان يقول: ينبغي أن نفعل شيئًا ونتمنى، فليس لدينا في هذه الدنيا إلا هذه المهمة، وسيكون كل ما تريد! لكن هذه النصيحة لم تكن كافية لطمأنة قلبي، التفكير بأنني لن أجد "پريچهر"، يجعلني مجنونًا. أصبحت عاجزًا لصمت "سرفراز خان"، فالوحدة أفضل من مرافقة إنسان صامت. الإنسان خزينة أسرار، فإذا لم يتحدث، أصبح مخيفًا، كالغار المظلم والمقابر المصرية ذات الطلاسم.

أعطاني كتابًا حتى أقرأ، عنوانه "سقوط خيوه" سأكتب لكم هنا كل ما بقي في ذاكرتي من هذه السيرة، لأنه يناسب حالي:

"ماك كاهن" اسم مراسل جريدة "نيويورك هرالد"؛ لأنه عاصر فتح خيوه الذي وقع في سنة ١٨٧٣م على يد الروس، وقد نجا من آلاف الحوادث، على عكس رغبة الجنود، فقد أوصل نفسه إلى الميدان فكان يقول:

عندما رأى "محمد إبراهيم بهادر"، خان (مهزوم خيوه) أن الوضع صعب وأنها مؤامرة، فلا بد من الفرار. رغم أن الجنود التركمان لم يكفوا عن الحرب بعد، لكنه أرسل رسالة إلى "كافمن" قائد حدود روسيا، وأعلن الطاعة والانقياد. وكان لـ" كافمن" منزل في حديقة السلطنة بـ"خيوه".

في الرابع عشر من يونيه، عاد "خان" مع جماعة من الكبار إلي "خيوه" ووصل في حضور القائد الفاتح.

أمام خيمة ومخيم "كافمن"، كان هناك إيوان بالطوب اللبن، كانت أشجار الصفصاف تلقي عليه بظلالها، أرضه مفروشة بالسجاد وزينت بكراسٍ ومنضدة.

حين وصل خبر مجيء "خان"، تجمعنا حول "كافمن" كلنا حتى نرى ذلك الحاكم المستبد بأعيننا، وكنا قد سمعنا عنه الكثير. دخل حديقته مسكينًا، خاضعًا ذليلاً، وكان يرافقه عشرون جنديًّا. فنزلوا في أول شارع "الصنوبر" المحاذي لخيمة قائد الروس، وخلع قبعته الجلدية العالية، وكان يسير ناحيتنا مطأطئ الرأس. وصعد إلى نفس الإيوان الذي كان مكانًا لسجود عبيده، وركع على ركبتيه أمام كرسي القائد.

• ينبغي العلم بأن أهالي خيوه لا يجلسون كالأتراك على أربع أقدام، يثنون القدمين أسفل منها، ويستقرون على الركبتين. على هذا فكان جلوس "خان" على ركبتيه، تعبيرًا عن الأدب والاحترام وليس العجز والخشوع.

رجل في الثلاثين من عمره تقريبًا، وجهه لو لم يكن مقبوضًا من الخوف مثل ذلك اليوم، فهو لا يخلو من القبول، عيناه واسعتان ومسحوبتان لأعلى قليلاً، أنفه على شكل منقار، يبدو حول وجهه هلال رقيق من الشعر الأسود، شفتاه غليظتان بارزتان، تبدو علامات

القوة من بنيان هيكله، طوله ١٩٢سم، ووزنه لا يقل عن ٤٥ "منًا"(*). يرتدي عباءة طويلة من القماش الحريري الأزرق، كان يجلس أمام "كافمن" حزينًا خجلاً، ونادرًا ما كان ينظر إلى وجهه.

القائد الروسي ليس لديه نصف حجم جسمه، لكنه كان سعيدًا مبتسمًا، فقد أذلَّ عدو روسيا التاريخي. كان واضحًا تفوق الروح على المادة، وتفوق التربية الحديثة على الحضارة القديمة، كان ذلك واضحًا بالمقارنة بين هذين الرجلين. ففي عهد حرب السيف، كان هذا الغول الذي لا قرن له ولا ذيل وحده قادرًا على هزيمة جيش، واليوم أصبح أسير الرصاص والبارود الغزير!

قال "كافمن": "خان" أرأيت حينما كتبت لك منذ ثلاث سنوات، في النهاية التقينا.

خان: هكذا أراد الله.

كافمن: "خان"، تخطئ، الله هنا ليس له دخل، أنتَ الذي أتيت بالبلاء على رأسك، لو كنتَ سمعتَ نصائحي لك منذ ثلاث سنوات لَمَا تقابلنا هنا أبدًا، لو كنتَ قد فعلتَ كل ما قلتُ، لمَا أراد الله هذا.

(*) المَن: وزن معين، يختلف من مكان لآخر، فأحيانًا يساوي ثلاثة أرطال، وأحيانًا يعادل كيلو ونصف الكيلو تقريبًا، وأحيانًا أقل من ذلك بحسب اختلاف المكان. "فرهنگ" معين، جـ ٤.

خان: لقد سعدت كثيرًا بزيارة "يارم پاشا" (يقصد نائب السلطنة ببلاد ما وراء النهر الذي هو نفسه "كافمن") لأنني لا أتمنى أن يغير تشريفكم شيئًا من الأحداث الماضية. فضحك "كافمن"، وقال: أنا أيضًا أشاركك هذه السعادة، تكلم لأعرف ما تصورك ورغبتك؟

خان: الحكم والأمر لك، الأمل الوحيد لي هو أن أكون أحد رعايا روسيا البيضاء.

كافمن: أنت صديق روسيا ولستَ من رعاياها، الإمبراطور الكبير لن يحرمك من العرش والتاج، كان هدفه فقط أن تعرف أنه لا يمكن أن تلعب بقدرته، ولكنه عظيم لدرجة أنه لا ينتقم أبدًا. الآن وقد عَرَفك قدرته، مستعد لأن يسامحك بشروط واضحة بيني وبينك. سيترك السلطة لك أنتَ، اطمئن لأن الجنود الروس، ليسوا لصوصًا سفاحين، ولن يعتدوا على مالكم أو شرفكم، ولن يأسروا أحدًا.

خان: أعترف أنني قد أخطأتُ، ينبغي ألا أتردد في قبول طلبكم، وكان الذنب ذنب المستشارين الجهلة لي. أشكر إمبراطور الروس وحضرة "يارم پاشا" لأنهم سامحوني واشتروا روحي.

شُكِّلت لجنة مكونة من ثلاثة أشخاص من وزراء "خان"، وثلاثة أشخاص من الضباط الروس ليضعوا مشروع أساس الحكومة الجديدة. كان واضحًا أن "خان" لا يعرف شيئًا عن الأمور تمامًا، فقد ترك مهام الأمور في يد وزرائه وهو مشغول بالطعام والشراب! كان

يشارك في المباحثات برغبة ومتعة، وكان "كافمن" يبدي حماسًا وشوقًا طفوليًّا في تنفيذ الأحكام، حتى عُرِف من هذه الحكاية:

أنه صدر فرمان من القائد الروسي إلى "خان" ينص على أن يطلقوا سراح الأسرى الإيرانيين، وألا يحضروا أسرى إيرانيين آخرين. وكان قد أصدر فرمانًا يتضمن أن يبلغوا هذا الأمر إلى حكام الولايات سرًّا حتى ينفذ في يوم معين، كي لا يكون هناك فرصة لإيذاء وإعدام الأسرى الإيرانيين. قرأ "خان" الجزء الأول من الفرمان وأرسل فورًا مناديًا إلى كل ضيعة وسوق وكل أرجاء المملكة، حتى يُوَصِّلوا أمر القائد إلى سمع الأهالي. ثم يذهب إلى "كافمن" بعد ذلك ويقول بشوق وشغف: نفذت الأوامر!

كان "كافمن" يسأل: ألم تقرأ ورقتي كلها؟ "خان" يقول: لا، اعتبرت أن الجزء الأول كافيًا....

كان "كافمن" يهز رأسه بحسرة ويقول: لكن عليك أن تعلم أنه غالبًا ما يكون الجزء الأخير من كتاباتنا أهم من أولها.

وفجأة نتيجة لغفلة "خان" عرف التركمان الموضوع، وأخذوا يقتلون عددًا من الأسرى.

***

في اليوم السادس عشر جاء الفرسان، لكن لم يكن معهم أحد، قالوا: إن "پريچهر" قد بيعت واشتُرِيَت عدة مرات، ووصلت قيمتها إلى مائة رأس من الأغنام وحصانين، وفي المرة الأخيرة كانت عند القائد "عثمان" أحد قواد التركمان المعروف بـ"سردارقليچ خان" من سكان حدود تركيا مع روسيا، كان يأتي مع ابنه "عمر خان" الشاب الرشيد الوسيم، إلي إيران لشراء الصوف، وطلبا شراء "پريچهر" وأن يدفعا فيها حتى ألف وخمسمائة تومانٍ، لكن القائد "عثمان" لم يكن مستعدًّا للبيع. كان الأب والابن قد نزلا ضيوفًا على "عثمان" لمدة شهر. وقد قام رسلنا بتوصيل رسالتنا إلى "پريچهر" وفي انتظار رحيل هذين الشخصين المشتريين حتى يتدخلوا في المباحثات. وفي الليلة التالية، يأخذ الأب والابن "پريچهر" ويفرون إلى روسيا!

كنتُ كحجر بلا شعور، حواسي معطلة، أشفق "سرفراز خان" علي حالي، وقال: لا داعٍ للقلق؛ لأن بيع الجواري ممنوع في روسيا، ستعود زوجتك حرة إلى إيران، وسأوصلك بالسلامة إلى "طهران" لرؤية محبوبتك، فأمسكتُ يده وقبَّلتُها.

كنت كلما سألت الفرسان عن كل شيء في أحوال ووضع "پريچهر"، ازداد حالي سوءًا، فقد كانت الردود كلها محزنة وقاتلة... فقطع "سرفراز خان" الحديث، وقال: لا ينبغي تجديد المصيبة بتكرارها. في النهاية تقرر أن أتحرك في الصباح إلى "طهران".

طوال الليل، أخذت الأستار الآسرة والمفزعة تتناوب الأماكن في خيالي. أحيانًا كنت أستمد القوة والطاقة من شوق الوصال، وأحيانًا كنت كجسد بلا روح، بسبب هجوم الأفكار السوداء، كانت الأصابع السوداء تطفئ شموع قلبي واحدة واحدة، قلت لـ"پريچهر": أحسنتِ إن نفذتِ فكرة الهروب إلى روسيا، لكني لا أريد أن تهربي مع ذلك الشاب. وتعجبتُ لأنك رغم وصول رسالتي لم تَبقَي وتنتظريِ ما أفعل! فكنت آتي بالأدلة على براءة ذمتها، حيث لم يكن هناك بد من التمني، ولم يكن هناك قدرة على تحمل الشدة أكثر من هذا، فاعتبرتِ أن العودة إلى "طهران" من هناك ستكون أسهل، رغم هذه الأفكار الطيبة، فإن تخيل أنكِ هربت مع الشاب الوسيم، كان يقلقني.

تطرق الحديث بيني وبين "سرفراز خان" إلى هذه الأوهام، وقلتُ الأفضل أن أذهب إلى روسيا حتى أخلصها إذا كانت أسيرة وإذا كانت قد ذهبت إلى إيران، فسوف يكون سفري من هناك أسهل. فكر وقال: أنا أيضًا لديَّ فكرة الذهاب إلى روسيا، سنذهب معًا.

بعد ثلاثة أيام، سلكنا طريق روسيا مع "سرفراز خان" وذلك الرجل الأسود الذي يُدعي "قلي خان". ومعنا تقريبًا خمسون حملاً للتجارة. كان هناك ثلاثة فراسخ تقريبًا، حتى حدود روسيا من معسكر "سرفراز خان".

عند دخول الأراضي التركية، أخرج "قلي خان" ورقة لمسئولي الحدود فعبرنا.

قالوا إن منزل "سردار قليـــج خان" الذي كانت فيــه "پريچهر" يقع على بُعد فرسخين تقريبًا من الحدود. قام "قلي خان" بالتحقق مـــن الأمر وتبين أن "سردارقليـــج" من أثرياء البلد. ثم قال شيئًا آخر فـــي أذن "سرفراز خان". قلقتُ، وسألتُ: هــل لــديك معلومــات تتعلــق بــ"پريچهر"؟ فنظر لأسفل وسكَت الاثنان. كررتُ السؤال بــضعف، فبدت ابتسامة حزينة للغاية على وجه "سرفراز خان"، قــال: ليتنـــي كنت مكانك. عليك أن تنسى آلامك بسرعة، لا ينبغي حتى أن تطلــق أو تضع اسم ألم عليها، لأنك خرجتَ من وهم كبير. وكأنني ضُرِبتُ بقبضة شديدة على رأسي، اضطربتُ وانعقد لساني، قال: كنتُ حتـــى سن الثامنة والعشرين أمنع نفسي من عشق البنات وكنت أبحث عــن تلك المحبوبة والزوجة التي يُكمِّل وجودها وجودي، وأخيرًا وجــدتُ ضالتي. كانت هي ما أتمني وكنتُ أنا هو نفــس مــا تتمنـــى، كنــا مخطوبين مدة عامين، وقبل الزواج بأســبوع، مَرِضَــت محبــوبتي وماتت. ومنذ ذلك اليوم تركتُ الملذات، الآن مضى على تلك المحنة ثلاثّون عامًا. وحتى لا أصرف العمر وما أمتلك دون فائدة، ســخَّرت عمري ونفوذي لخدمة الوطن، لكني لستُ حيًّا، ثلاثون عامًا ميــتّ! هل هذه الواقعة غير مستساغة أكثر أم زوجتك غيــر الوفيــة التـــي اتخذت زوجًا آخر؟ ما أجمل أنك عرفتها على حقيقتها!

لم أسمع باقي كلامه، دار كل الناس وأثاث تلك الحجرة في عيني، واختلطوا ثم تلاشوا. تركني "سرفراز خان" و"قلي خان" مع نفسي وخرجا. عندما أصبحتُ وحدي سال الدمع من عيني، ظللت أبكي فترة طويلة. حين عاد "سرفراز خان"، قلتُ: تأكد أن زوجتي وفية ولن تتزوج من آخر مطلقًا، هذا الخبر ليس صحيحًا، سترى أن الحقيقة هي غير ذلك، أعتقد أنها أعطت وعدًا كاذبًا حتى تعد العدة للهرب.

فقال "سرفراز خان": إن شاء الله يكون الأمر هكذا كما تقول. قلتُ: أنا سأحضر "پريچهر" غدًا إلى هنا حتى تشكرك على كل هذا العطف والرحمة، ثم نذهب معًا إلى إيران.

***

أخذت ظلمة الليل تهاجم روحي مع الأفكار والأهام المخيفة والمفزعة، كنت بين اليقظة والسكر، أرى "پريچهر" في أحضان "فريدون" وفي فراش شاب تركماني، فجُننت، كنت أنتوي أن أنهض وأقتل "سرفراز خان" قائلاً: لماذا نجيّتني من الموت؟ ثم أُشعل النار بالمدينة بعد ذلك، فأرى "پريچهر" تحترق، فأضحك وأصفق وأرقص. أحيانًا أقرر أن أذهب إلى منزل "سردار قليچ" وأمزق بطن ابنه... لكن أعضائي كانت من اللباد ولا تطيعني! عندئذ كنت أبكي بحرقة،

فأرى "پريچهر" تنام بجواري، تمسح دموعي بوجهها، وتقول: "حبيبي علي"، أليس من الظلم أن تظن بي السوء؟! فقلبك هو منزل العشق، لماذا سمحت لظن الخيانة بي؟! رأيتَ ماذا فعل بنا الخيال المعوج ألم تنتبه؟! لقد ذهبت من أجلك إلى منزل "فريدون" حتى لا يكون هناك حساسية مؤذية، حين تقطع أواصر صداقتك به، والآن أنا أيضًا في منزل التركماني، نتيجة نفس التضحية التي فعلتها، حتى أجد طريقة للهرب. أنسيتَ أنني تركتُ والدي وأسرتي من أجلك، في الوقت الذي لم تكن تملك شيئًا مطلقًا، غضضت الطرف عن زينة الحياة ومباهجها، وعشتُ حياتك البسيطة. أنا التي كنت أعتبر أن الثروة والجاه من ضروريات الحياة، ولم أقبل زوجًا مثل "... الملك" بكل ما لديه من نفوذ وجاه، مع كل هذا هل يليق أن تشك في وفائي وصداقتي، وتشوه صورتي في خيالك ولو للحظةَ! لماذا تتخيل أنني فضلتُ عليك التركماني المتوحش، وأنا التي رفضتُ "فريدون"؟! العشق من أساسيات الحياة، لكن يبدو أنك لم تحبني! " كنت أقول في الرد: عزيزتي "پريچهر"، أخطأت، انظري حالة تفكيري، ارحميني، ولتعزيني، اعطفي عليَّ، كل ما تفعلي هو عين الصواب، الاعتراض عليك بعد ذلك يكون حرامًا، سامحيني.

أشرق نور الصبح بهذه الأوهام، استأذنتُ من "سرفراز خان" حتى يرافقني "قلي خان" إلى منزل "سردار قليچ".

بعد ساعة كنا نسير و"قلي خان" نحو الهدف، وقد استولى على كل كياني، حزن يفوق الوصف ويعصر قلبي. كالسجين حين يحملونه إلى سجنه، فقدمي لا تسير إلى الأمام، كنتُ قد اعتدتُ على الحـزن والألم، رضيتُ أن أبقى على هذا الحال طوال عمري، علي أن أنـدم عند الخروج من تلك الحالة، أخشى أن تكون الحقيقة، أكثـر خوفًـا وألمًا من تلك الأحوال...

أخيرًا وصلنا إلى قصدنا، هذه الفترة القصيرة، مـرّت علـيَّ وكأنها بضع سنين. كانت قرية "سردار قليـچ" تقـع بـالقرب مـن المدينة، ويبدو شكلها صحراويا. كانوا يشيروا لي بأن مكان "پريچهر" هناك، فكنت كالذي يرتعش من نزلة برد، أسناني تصطدم ببعـضها، وقد أُغلِقَت في وجهي كل أبواب الأمل، ورأيتُ حياتي كلها حرمانـا وسوء حظ: حتى "پريچهر" التي تخرج من منزل آخر لم تـستطع أن تسعدني، وكان وجودها مؤلمًا، التصقت عيني لاإراديًا بوسـط "قلـي خان"! كنت أتخيل أنني أمسك بقبضة خنجـره، وشـعرتُ ببرودتهـا وحرقتها في بطني. لكني كنت أرى أن "پريچهر" تنزعها من جسدي البارد مرة أخرى، فأخذتها بلا معارضة بين أحضاني وحملتها... لم أُرِد أن أموت هباءً.

كنا على بُعد خمسين قدما تقريبًا، حين خرجت بعض الكـلاب وكلاب الصيد تجري من خلف الكوخ ثم جاء وراءهـم فـارس...

أضاء وجه "پريچهر" الأبيض الفضاء، كانت رأسها ملفوفة في الحرير الأحمر وثوبها قرمزيًا مزركشًا، جدائلها تتدحرج على صدرها كثعبانين من الذهب، ترتدي حذاءً أصفر، ويأتي وراءها بنصف قدم شاب، ورغم أن حصانه كان أقصر من حصان "پريچهر" لكن طول قامته كان يعالج ذلك، فكانت تسير بمحاذاته. تذكرتُ آنذاك، أن "پريچهر" كانت لا ترغب مطلقًا أن تكون أقصر مني، وتجبرني أن عليَّ أن أقصِّر كعب حذائي. كان شابًّا تركمانيًّا ذا قبعة، لكنه يرتدي ملابس صيد أجنبية، لم ينبت شعر لحيته بعد، شابًا حسن الطلعة مليئًا بحيوية الشباب، لا يشبه التركمان.

كانت "پريچهر" تهتم بتأثير جمالها، تأخذها حالة من الغرور والوقاحة، كانت تمدُّ رقبتها وتتقدم بصدرها للأمام، وتلقي بسهام الاحتقار من عينيها صوب كل اتجاه، فبدت عظمتها بلا حياء أو خوف. شاهدتُ هذه الأمور في شكلها.

كنت أتمنى في لحظة، أن ترتعش كل قطعة من لحم جسدها في فم أحد الكلاب وتموت، تتحطم عظامها فتمضغها الكلاب! ربما كنت مخطئًا، لأنني أضطرب وتختل حواسي، حين أتصور، وجود هذا الجسد الجميل، بين أحضاني.

كانت الكلاب تعدو للأمام، و"پريچهر" تحرك السوط في الهواء وتصفر وتنادي الكلاب بالاسم، رأيتُ "جامن" بين الكلاب التي مرَّت

بالقرب مني فناديته، فتوقف ونظر إليَّ في حيرة، ناديتُ اسمه مرتين، وذكرت بعض الكلمات التي كان يعرفها، عرفَني، ووقع عليَّ كالمجنون، كان يصعد عاليًا على رأسي ويدي. كأنني وجدت كل ما فقدتُ، هدأ قلبي، اطمأننتُ على "پريچهر"، وتخيَّلتُ أن الإنسان لا يقل عن الكلب!

تجمعت حولي الكلاب الأخرى أيضًا، فجذب ذلك اهتمام "پريچهر" و"عمر خان" ناحيتي، عندما اقتربا. فقلتُ: "پريچهر" أنا "علي"، انزلي، لا تخافي... فنظرت لي "پريچهر" متعجبة من الرأس إلى القدم وكأنها تريد أن تهرب، ضربَت الركاب، وذهبَت مسرعة. تأخَّر" عمر خان " حتى يراني جيدًا، لكنه أسرع وراءها حين نادته.

كأني صرتُ حجرًا، ليست لديَّ القدرة على الحركة، كنت قد اضطربتُ ونسيتُ العالم. أفاقني "قلي خان" وذهبنا، لكنني لم أكن أعرف أين أنا وإلى أين نسير، كالشخص الذي استيقظ من النوم لتوه، كنت أتذكَّرُ ذلك المنظر بصعوبة، وأتعجب أنه لم يؤثر فيَّ! كأن هذا الموضوع حدث لشخص آخر وكنتُ أنا متفرجًا. فاختلطت وتلاشت الذكريات من خاطري، كانت الدنيا تمر أمام عيني كأنها فيلم سينمائي مشوَّش، تمرّ بسرعة، "جامن" يأتي بجانبي لكني لا أعبأ به.

وصلتُ إلى المنزل على هذا الحال، استنتجت من نظرة "سرفراز خان" أنه يقول: أرأيتَ أنك كنتَ مخطئًا! الموضوع كما قلت

أنا! تضايقتُ، أردتُ أن أبرئ ذمة "پريچهر" وأقول إن الخيانة أمر مستحيل من معشوقتي، كنت أتكلم كلامًا بخيالي حتى أنا نفسي لم أكن أسمعه، فقد كان لساني معقودًا، فتلاشى "سرفراز خان" في عيني وابتعد ثم غاب...

***

فقدتُ الوعي ثلاثة أيام وكنت أهذي، حين أفقتُ. تجمَّعتُ الذكريات كالسحب السوداء من كل ناحية وأحاطت بخاطري، فبكيتُ كثيرًا وكان ذلك البكاء عزاء العشق؛ لأنه وبعد هذه الرؤيا المفزعة، مات عندي العشق، كنت أري تلك الحقائق المؤلمة والأوهام المفزعة في الخيال، فكنت أهرب بكل قواي وأفرّق تلكِ الظنون، في العالم الخارجي، رأيتُ بالعين أنه لم يعد لدي وسيلة للخداع. كأن ذلك المنظر مفتاح الطلاسم التي لا تتفك، فأضاء لي كل ما كان مظلمًا في قلبي، في علاقة "پريچهر" مع " فريدون": فبدت الأسرار التي كانت في ألوان كلامهم، وأصبحت واضحة لي، كانت أصغر حركاتهم في عيني بارزة ومليئة بالمعنى، فهمتُ ماذا كان يقصد حين يقول أحدهما، جميل، يا له من طقس رائع، كم هو صافٍ، أو فنجان الشاي حين تقدمه ويمسك به، ماذا كان يحمل من رسائل، كنتَ أرى الأيام والليالي الجميلة، كم كانت ملوثة، مليئة بالمكر والخيانة، ولم أكن أعرف: ذلك اليوم الذي ذهبنا فيه إلى "شميران"... وتلك الليلة حين كنا في منزل "فريدون"... وذلك اليوم الذي كنا نلعب فيه حول المنضدة...

كنت أنام و"جامن" كأنه يريد أن يواسيني، كان يمسح فمه بأذني برفق، ويقول: أنا أفضل من "پريچهر" وأكثر وفاءً. لا أتعب من المحبة ولا أنقض عهدًا قط، لو أن صديقتي صارت قبيحة، فلا أتضايق منها ولا أفضل أخرى عليها مهما كانت أجمل وأفضل وذات جاه أكثر منها، أنا أريد نفسي للمحبة وليست المحبة لي، في الصداقة معي، لا تُخدع ولا تظلم...

احتضنته ولجأتُ إليه، من خبث الطبيعة البشرية، عرف "جامن" حق الوفاء، وجاء معي، لكن "پريچهر" ذهبت مع آخر! فبكيتُ على تغير الإنسان، فلا نثق بالآخرين ولا بأنفسنا...

رأيتُ أن حرارة محبة "جامن" لن تقل مطلقًا، ولن تفتر محبته بسبب البُعد، تذكرتُ ذلك الزمان السعيد حين كنت فقيرًا، لكن قلبي كان كنزًا للأمل والعشق والإيمان، كنت اشتري اللبن بنفسي وأرضعه "جامن" بالرضعة؛ لأنني كنتُ قد أخذته في الشتاء القارس من على ثدي أمه الميتة، كم كان وقتًا سعيدًا، كنت أظن أن كل الناس وكل شيء ثابت لا يتغير، لم أصل بعد إلى العشق وسلطانه، كنت أتصور أن هذه الجذوة المحرقة من بعيد، ماء زلال وروضة غناء، ليتني لم أصل مطلقًا إلى هدفي، كنتُ دائمًا ثملاً بخيال العشق حتى أفقد الروح، في الهجر الموت أسهل، حتى من عدم وفاء المعشوق.

في اليوم التالي سلمني "سرفراز خان" مظروفًا وكان بخط "پريچهر"... حتى أفتحه، قبلتُ يده وقدمه ألف مرة في الخيال واستغفرتُ من الذنوب، كانت تقول فيه:

عزيزي "علي"، لا أستطيع أن أحكي لك ما الحالة التي أصابتني لرؤياك، الحمد لله أننا بخير، لماذا أصبحت عينك هكذا، وما سبب هذه اللحية الطويلة، أنسيتَ أنني أكره هذه الأشياء القبيحة! ألا تقول لي أحسنتِ لأنني كنت ماهرة وخلَّصتُ نفسي من هذا الهلاك؟ لكن ينبغي أن تشكر "سردارقليچ" لأنه خلَّص "پريچهرك" من براثن الموت، وخطبني لابنه "عمر خان" حسب رغبته هو، لكنني كنت أكثر مهارة منهما، وسأهرب خلال يومين ثلاثةَ وأذهب إلى إيران. وجودك بالقرب مني خطر، لأن هذا الشاب، عاشق ومفتون بي وقد عرف من أنت ولماذا جئتَ، اذهب سريعًا لأن حياتك العزيزة في خطر. تحرك فورًا واذهب إلى "طهران" من أجل "پريچهر"، فليس لوجودك أهمية لخلاصي، بل سيكون حائلاً. سأشرح لك المفارقة بعد ذلك وأنا بين أحضانك. يا رب لو قتلني ظلم "علي"، فخذ روحي في نفس الساعة!... حبيبي "علي" يجب أن تذهب بأسرع وقت، اكتب لي بسرعة، وارسل نبأ تحركك مع الشيخ حامل هذه الورقة، فهو متعاون معي.

"پريچهر" فداؤك.

كل عبارة من عبارات هذه الورقة، كانت قنديلاً أضـاء لـي شعاعه الأسود الملوث بالـدم، الهيـولي المفـزع لـروح "پريچهر" وتوضحه، أرادَت أن تحرر نفسها من متاعب وجـودي، لـم أكـن أتصور أنها مغرورة وقاسية إلى هذه الدرجة، رأيتُ الحقيقة المفزعة وجهًا لوجه، غير مقبولة كالعدو الذليل، ونهضَت كل قوايَ للمبارزة.

فقلتُ لـ"سرفراز خـان": إن "پريچهر" أسـيرة فـي قبـضة الوحوش، وخطِبَت لـ "عمر خان" مضطرة حتى تهرب إلى روسـيا بهذه الوسيلة، والآن هي تخاف من عداوتهم وتعقبهم وتبـدي قلقهـا بشأني، تريد أن أخلصها سريعًا من هذا البلاء. ففكر وقال: الأفـضل أن تعودا إلى "طهران"، وزوجتك أيضًا تستطيع، لو أرادت أن تذهب من روسيا إلى إيران.

فسمعتُ من هذه النصيحة حقيقة الدنيا المُرة، وكتبتُ في الـرد على خطاب "پريچهر":

"پريچهر" مسكينتي، بعد وضاعة معاملتي وعفوي الإجرامـي بشأن "فريدون"، معك حق لو افترضتِ أنني عاجز جبان، وتخيفينني من سوط ومسدس التركمان، لكنني سأتصرف هذه المـرة بمقتـضى رجولتي، وأحملُ عنك الخطأ، اطمئني، فلن أذهب من هذه الدنيا مـا دمت لم أمح هذه الوصمة عن شرفي.

علي.

* * *

كانت كتابة هذه الورقة قرارًا صريحًا وعهدًا غير قابل للنقض في آن واحد، تحررت من ألم الاضطراب، وأصبحت مهمتي واضحة، تأكدتُ أن "پريچهر" سعيدة مع ذلك الشاب، وأنها لن تأتي معي، فقررتُ قتل محبوبها حتى يحترق قلبها. فعشقي يطوي مرحلته الثانية بمعنى أنه تبدَّل بعداء وحقد، كنت مستعدًا لأن أشعل النار في روحها ثم أموت.

جاء العجوز مبعوث "پريچهر"، ليتسلم مني الرد، تغيَّرتُ لرؤيته، فعيناه ترى وجه "پريچهر"، وأذنه تسمع صوتها، وذرات وجوده ترافق ذرات وجودها، كنت أستنشق عطر "پريچهر" وأنا بجواره، أرى صورتها في عينيه، كنت أتمني أن يفهم حالي الباكي، وأن يرق خاطره وطبعه لمشاهدة عجزي وألمي، حتى يشعل النار في قلب "پريچهر" البارد بكلمات عاشقة كسيرة ويحرق روحها...

سألتُ: هل هذه المسكينة تعاني كثيرًا؟ فقال: العروس الحديثة لا تعاني!... فمتُ من الخجل أمام "سرفراز خان" و"قلي خان"، انقبض حلقي ولم أستطع أن أسأل عن شيء آخر، أعطيته الورقة وأرسلته.

تحرك شعور الشفقة لدى "قلي خان" لمشاهدة أحوالي، فقال بصوت هادئ وناعم: لقد توصَّلتُ إلى طريقة من أجل خلاص

زوجتك. ثم توجه إلى "سرفراز خان" وكأنه يتشاور معه أو يطلب الإذن، قال: لكن هذه الأمور ستحتاج إلى نفقات، قلت: سأدفع مهما يكون، لا تتردد من هذه الناحية. فأيَّد "سرفراز خان" كلامي بتحريك رأسه. فقال "قلي خان": من الممكن أن يُرسَل "عمر خان" إلى الحرب، فالضباط الروس دائمًا لديهم الاستعداد لهذا الأمر. فلم يسترح "سرفراز خان" لهذا الاقتراح وغاص بتفكيره، لكنه بعد لحظة قال، ولأنه سيكون مساعدة للمتفقين، فلا بأس.

رأيتُ أن الحس الوطني يتغلب على جميع مشاعر هذا الرجل، فقد رضي بقتل الشاب التركماني من أجل حياة وسعادة شعبه، وإلا لمَا سمح بهذا الأمر أبدًا من أجل تحرير زوجتي.

في الغد، جاء "قلي خان" من مقابلة "پالكونيك" وقال: اطمئن فقد تم كل شيء، خلال عشرة أيام سيكون "عمر خان" في الحرب، أرسلت تحية للحرب، ولم أذكر شيئًا عن الأمهات الثكلي اللائي يفقدن أبناءهن واليتامى. فقال "قلي خان": علاوة على ذلك فقد تأثَّر "پالكونيك" لسماع ما حدث لك وطلب أن يراك، ومستعد- لأنهم عقدوا لزوجتك دون رغبتها- لأن يؤدي القسم، من أجل فسخ ذلك العقد والزواج.

كنت أصرخ بداخلي قائلاً: يا إلهي لا تفضح كذبي، "پريچهر" في النهاية، كانت راضية عن هذا العقد والزواج...

تقرَّر أن أذهب غدًا لرؤية "پالكونيك"، حاولتُ بكل جهد أن أخفي حقيقة أمري، فاضطرب داخلي أكثر لأنني رأيتُ أصدقائي غرباء ورأيتني مشردًا، ولا أستطيع أن أُفضي لهم بألم قلبي.

عند الغروب، عاد مبعوث "پريچهر"، وأحضر ورقة، لعله أحضر أمرًا بقتلي أو حرّيتي، فتحتُ الورقة بيد مرتعشة، كُتِب فيها:

عزيزي "علي" أبعدتُك، حتى لا تسيء الظن إلى هذا الحد، كن مستعدا الليلة الساعة الرابعة بعد منتصف الليل، عند النبع حتى نهرب، أحضِر حصانًا قويًا، إما نُقتل أو نصل إلى المنزل، لا أستطيع أن أكتب أكثر من هذا.

فداؤك "پريچهر".

كنت لا أستقر بجلدي وجْدًا واستغفرتُ ألف مرة لسوء ظني، وقبّلتُ يد وقدم "پريچهر". كأنني أصبتُ فتحًا بشهامة وغرور، ترجمتُ الورقة وقرأتها لـ"سرفراز خان" و"قلي خان". فقال "سرفراز خان": ما ضرورة أن تلقي بنفسك في الخطر، ينبغي أن تصبر عدة أيام. وكان "قلي خان" يؤيد كلامه أيضًا ويقول: علاوة على أنك لا زلتَ ضعيفًا وفي طور النقاهة لا تقدر على هذه الحركة، وعلى كل حال من الأفضل أن نتشاور مع "پالكونيك". أثناء هذا الحديث جاء الخادم وأحضر ورقة، اكفهر وجه "قلي خان" عند قرائتها وأعطاها إلى "سرفراز خان". قرأها هو أيضًا ورفع حاجبيه وقال لي: "لا بد

أن نذهب من هنا بعد ساعتين، ومن الممكن إذا أردتَ، أن تأتي معنا حتى نوصلك إلى مكان آمن. لقد ذهب ذلك "الـــپالكونيك" أيضًا الذي كان مساعدًا لنا، ولم يعد لديك هنا صديق أو حمي. "كان من العقـــل أن أذهب معهم لكن هذا القلب بلا عقل أمسك برقبتي وأوقفني علـــى حافة بئر مهلك. فلم أستطع أن أبتعد عن "پريچهر" وبقيت.

كتبتُ لـــ"پريچهر": سأكون الليلة الساعة الرابعة بعد منتـــصف الليل عند النبع.

فداؤك "علي".

قبَّلتُ يد "سرفراز خان"، وقلت ليست لدي قدرة الابتعاد عـــن "پريچهر"، الليلة سأهرب معها، لو بقينا علي قيد الحياة سنكون عندك غدًا صباحًا في المعسكر الجديد وإلا يكون هذا هو آخر لقـــاء ووداع بيننا. كانوا مسرعين كالوحوش حتى يرحلوا عني بسرعة ثم قـــاموا ببعض أعمالهم. عند التحرك، أعطـــاني "ســـرفراز خـــان" عنـــوان المعسكر الجديد، ورسم له رسمًا توضيحيًا على الأرض، وقال: لـــو استطعتم أن تصلوا إلينا سيكون سهلاً ذهابكم إلى طهران.

قال "قلي خان": وأنا سأعد لكم إجراءات الذهاب والعودة عبر الحدود.

***

حين ذهبوا، رأيتُ نفسي وحيدًا وغريبًا وانهمــرت دمــوعي بغزارة. كنت أكره نفسي لأنني ألقيتُ بــ"پريچهر" إلى الخطر. كنــت أوبخ نفسي على كل سوء ظني بها وأقول: لو تصورت "پريچهر" أن هروبها بهذه السهولة، فهذا دليل على منتهي حبها، مخافة أن يظهــر لك فجأة مصيبة وتسقط أسيرًا. فأنت لا ينبغي أن تقبــل اقتراحهــا، أليس من الممكنِ أن يسرق حيوان متــوحش "پريچهر"! فقــررتُ ألا أذهب إلى الميعاد لكن لم يستمر هذا التصميم، لم أكــن أســتطيع أن أعوِّق رؤية "پريچهر"، لو كان ضروريًّا أن أُقتَل، فكنــت أتمنـــي أن يكون ذلك أسرع، حتى نتخلَّص -نحن الاثنين- من هذا الأسر.

وصلتُ بعد ساعة واحدة من منتصف الليل إلى النبع، ربطــتُ حصاني في غصن، وجلستُ على حجر، كان منزل "سردار قليـــچ" يبعُدَ عني ألف قدم، رغم أنني لم أكن أرىَ شيئًا فـــي ظلمـــة الليــل، إلا أن عيني كانت مثبتة على تلك الأكواخ.

في تلك الليلة، لم يدُر فلك الخيال، كان عاجزًا أن يرى حالي المتعب. لو أردتُ أن أسجل أفكاري المضطربة المتولدة عن العــشق والحسرة والشك والغضب، وألف خيال آخر، ســيكون كتابًــا كلــه جنون. لن يستطيع أحد أن يدرك تلك الأحوال إلا أنا.

تشتت عقلي لهجوم الأفكار، كان كياني قد هُزِم وضَــعُفَ، لــم يكن لدي قدرة على التفكير والتعقل، مضى ألف عام، حتى الرابعة بعد

منتصف الليل. فجأة رأيتُ خيالين، بلون أسود من ظلمة الليل يتجهان ناحيتي! فارتعد قلبي واقشعر بدني، تأكدتُ أنها ليست "پريچهر"، لو كانت هي لجاءت وحدها. أردتُ أن أهرب، تخيَّلتُ ربما كانت "پريچهر" بينهما، فسحبتُ السكين الكبيرة التي كانت على وسطي، وأصرَّ " جامن" أن يهاجمهم، فقمت بمنعه، وترقبت ما يحدث.

على بُعد عشرين قدم، توقف أحد الشخصين بينما كان الثاني يأتي ناحيتي، فسمعتُ صوت "پريچهر" يناديني! فخفق قلبي، وصلت "پريچهر" وقالت: لا تتعطل، لنذهب. سألت: من هذا الشخص، الذي كان معك؟ قالت: هو نفسه مساعدي العجوز، لا تقلق.

كان صوتها غير مضطرب، ليس لديها أي شوق أو خوف. لم أجرؤ أن أحتضنها وأقول لها ما بقلبي، سألتُ: إلي أين نذهب؟ قالت: يجب أن نذهب إلى الأراضي الإيرانية، ليست هناك حيلة، فإما أن نُقتل أو نصل إلى الهدف.

ركبنا وذهبنا، كنت مترقبًا كل لحظة أن يأتي وراءنا فرسان ويعلو صوت الرصاص. مشينا مدة حتى أشرقت الشمس، وأضاءت الصحراء، وكلما نظرتُ لم أرَ أحدًا. فاطمأن بالي، فأمسكتُ يد "پريچهر" وقبَّلتها وكنت أبكي. رقَّ قلبها القاسي، وقالت: "علي" المسكين، كم تألمتَ من أجلي، هكذا القدر، ماذا نفعل. قلتُ: سأنسى الآلام وأشكر الله أنني وجدتك مرة أخرى، لو لم أندم وأخجل على ما لحق بوجودك الرقيق من أزمات بسبب سوء فهمي، فليس لدي أي

حزنٍ في الدنيا بعد ذلك، تأوهتُ، وقالت: ينبغي أن أخجل أمامَك! قلتُ: ألا تعتبرين نفسك مقصرة في حقي؟ قالت: لو لم أكن مرغوبة منك لمَا تزوجتني أو تزوجتَ من أخرى تكون متفقة معك في الأخلاق، فنحن بيننا مسافة من الأرض إلى السماء، بمعنى أنك في السماء وأنا في الأرض! زوج لسيدة مثلي ينبغي أن يكون حاد الطبع وعديم الوفاء، يجب أن تشتعل نار عشقي كل يوم من الغيرة، أنت طيب جدًا، لا أعرف كيف، كان ينبغي ألا تكون هكذا، يجب أن تخونني حتى يخفق قلبي دائمًا من أجلك، كان من الأفضل أن تقتل "فريدون" أو على الأقل تضربني...

سكتنا فترة، ثم قالت: هكذا كتبتَ لي "ما دمت لم أمح هذه الوصمة عن شرفي فلن أرحل عن هذه الدنيا" سعدتُ أنني أحب رجلاً كهذا! حبيبي "علي" لن نتحدث عن الماضي ثانية، تكلم عن المستقبل المليء بالسعادة والسرور، هل هناك من هو أسعد منا؟

تبادلنا القبلات الحارة والأحضان، وقلب العاشق ينسى بكلمة واحدة جميلة كل هموم الدنيا، كنا نسير متعانقين، ولم نكن نتحدث مطلقًا عن الماضي، كنت أتمنى ألا تحكي لي عن كل ما أصابها، فلم يكن لدي قدرة على الاستماع! لكنني حكيتُ لها قصتي، فكانت تنصت بكل دقة وتسأل عن التفاصيل.

***

كانت "پريچهر" تعتقد أنه من الأفضل أن نذهب إلى الأراضي الإيرانية عبر طريق الصحراء، لكني لم أكن خائفًا من حرس الأمن الروس، مطمئنًا إلى وعد "قلي خان"، كنت أريد أن نمرَّ عبر الحدود، وكان كل منا يأتي بالأدلة على صحة رأيه، قلتُ: لا بد حتمًا أن نعبر من الحدود، فإذا أُسِرنا سيكون ذلك على يد الروس ولن يكون الأمر خطيرًا، لكن عبر الصحراء من الممكن أن نصبح فريسة للتركمان، وهذه المرة سيقتلونني!...

قالت: كل ما عانينا من صدمات كان بسبب سوء تفكيرك، هذه المرة اسمع أنت كلامي! لقد تعلمتُ في هذه الأيام كل صغيرة وكبيرة ولا أتحدث من فراغ.

مشينا من الصحراء ودخلنا شعبًا صغيرة وسط هضبتين، وكان يمر من وسطها نهر صغير، ونبتت شتلات الورود الصغيرة كثيفة على حافة ذلك النهر. فأظهرت "پريچهر" التعب والعطش، أنا أيضًا كنت عطشان، فنزلنا. انبطحت "پريچهر" على حافة النهر حتى تشرب، لكنها لم تستطع أن تنهض، انزلقت يدها فسقطَت. أوقفتها وأخذتها إلى حضني، أخذتُ أقبّل رأسها ووجهها ونسيتُ الدنيا والزمان والمكان. تمددت ووضعَت رأسها على رجلي وأمسكَت بيدي، قالت: حبيبي "علي"، لقد تعبتُ جدًا، دعني أسترِح بضع دقائق، كانت هي تشاهد السماء وأنا أرى السماء في وجهها وكنتُ صامتًا،

أخشى أن يرتعش الهواء من صوتي، فتضطرب تلك السعادة. لم تكن "پريچهر" تنظر إلى وجهي، وتهرب من عيني ففهمتُ أن لديها بعض الخجل، قلت بلسان القلب: يا إلهي، امحِ ذكريات الماضي من خاطرنا، مقابل كل هذا الألم والشدة، أو لتأخذ روحنا!

أفاقني صوت نباح "جامن"، رأيت راكبًا يعدو ناحيتنا، فقلت لـ"پريچهر": انهضي واركبي، لو قُتِلتُ ففري وأوصلي نفسك إلى "سرفراز خان"، ثم سحبتُ السكين منتظرًا ذلك الراكب. اقترب، فرأيتُ أنه "عمر خان" نفس الشاب التركماني!

كانت "پريچهر" تجلس وتنظر إلى الأرض، وصل "عمر خان" ونزل عن حصانه شاهرًا سيفه، ووقف على بُعد بضعة أقدام مني، وبعد قدر من السباب قال: إلى أين تحمل زوجتي؟ تكتبَ الرسائل لزوجتي وكنت تريد أن تقتلني! الآن أعطيك ما تستحق!

كانت السكينة القصيرة التي بيدي لا تتناسب مع سيفه الطويل، قلتُ: شاب بشجاعتك من الظلم أن يرتكب أسوأ ذنب! هناك الكثير من السيدات من أجلك، وليس من الرجولة في شيء أن تنظر إلى زوجات الآخرين، فالسرقة وعدم الشرف ليس من سمات الرجولة! لماذا تُخجل نفسك أمام الله ورسوله، ألا تعرف أن الله لا يغفر الزنا! ثم إنني مسلم مثلك، وهذه المرأة في عصمتي وزوجتي...

أثَّرَت كلماتي في "عمر خان" فوضع سن السيف في الأرض، كان واضحًا أنه في صراع مع وجدانه.

فنهضت "پريچهر" وقالت بالتركية: نحن شيعة، وعقدنا لا يطابق المذهب السني...

تخيَّلتُ أنني سمعتُ خطأً، فقلت بالفارسية: هل جننتِ؟ لماذا تتحدثين هكذا! فابتعدت عني واقتربَت من "عمر خان" وقالت بصوت مليء بالجرأة والضجر: "علي" إن عشقي لك انتهى منذ زمن، ثم إنني أحببتك كأخي، ولأنني أعرف أن قلبك رقيق، وسيتألم لفراقي، كنت معك وتحمَّلتُ، لكنه مرَّ بصعوبة، الآن إذا كنت تحبني، دعني وشأني واذهب...

كأن نارًا اشتعلت تحت قدمي، نهضتُ من المكان وهجمت ناحية "پريچهر" وألقى "عمر خان" بنفسه بيننا ورأيت أنه الآن سيُنزِل سيفه على رأسي! ورأيتُ نفسي مقتولاً، فجأة اصطدم التركماني بالأرض وفرَّ السيف من يده!... فوصلتُ إليه بسرعة البرق وأنزلتُ اليد بالسكين بضربة واحدة في رقبته... تنبَّهتُ إلى أن" جامن" ذلك الكلب الوفي، قد ساقه من الخلف!

كان الشاب المسكين يركل باليد والقدم، وأخذت أضحك أنا كالمجنون. و"پريچهر" تصرخ كالمجنونة قائلة: "أقتلتَ رجلي، قتلتَ

شابًا بهذا الجمال! أنا لا أحبك، أنت بلا حمية عديم الشرف!" لم أسمع باقي السباب، لم أفهم ماذا حدث، فسحبتُ السكين من رقبة التركماني ومزقتُ بطن "پريچهر".

***

اسودَّت الدنيا في عيني، حين أفقتُ وأدركتُ عملي المفـزع، كنت أجري في كل اتجاه، أطلب العون من السماء لكني لم أستمع إلا للسكون الموحش للصحراء، جوابًا لأنيني، جئتُ إلى وسادة "پريچهر" وربطتُ بطنها بالشال وأردتُ أن أحملها وأركبها، فارتفع صـراخها، قلتُ: أذهب وأحضر لك طبيبًا، قالت بـصوت ضـعيف: لا فائـدة، لا تتركني وحدي، خذ بيدي...

أخذتُ يدها وكنت أقبّلها. فتّحَتْ عينيها وبنظرة باكيـة، قالـت بهدوء: حبيبي "علي"، هل سامحتني؟ قلتُ: نعم عزيزتـي سـامحتُك، أتحمل ذنبك على رقبتي أمام الله. فبـدت الابتـسامة علـى وجههـا وأغمضت عينيها، تأوّهت وأسلمَت الروح ...

خسارة كم مضى عليٌّ، نسيتُ ذنوبها وأُسدلت ستارة بيـضاء على صفحة أعمالها، رأيتُ أنني قتلتُ بيدي "پريچهري" دون ذنـب، جُننتُ، كنت أحثو تراب الصحراء على رأسي وأخذت أبكي.

احتضر الشاب التركماني وكانت نافورة دم تخرج من فمه ورقبته، خاطبتُ القتلى قائلاً: سبب ظلمي أنا وأنتما هو "فريدون"، لن أموت، ما لم أنتقم منه، فلتستريحا!.

غَسَّلتُ "پريچهر" بدموع العين وزيَّنتُ جسدها بزهور الصحراء ودفنتها تحت الأغصان وأوراق الشجر...

فيا قراء هذه القصة، بالله عليكم سامحوا "پريچهر" ولا تغضبوا منها، فقد نالت جزاء إخفاقها في هذه الدنيا، ورحلت طاهرة بريئة كما جاءت إلى الدنيا، وتحملتُ أنا ذنوبها على كتفي، وأستحق العذاب والعقاب.

* * *

لكم أن تتصوَّروا حالي عند التحرك والوداع، لو استطعتم، فأنا لا أستطيع الكلام.

امتطيتُ الجواد وناديتُ "جامن" ومشينا، بعد عدة خطوات توقفتُ وألقيتُ نظرة أخيرة على "پريچهر"، رأيتُ "جامن" وهو يكشف عن وجه "پريچهر" بيديه وقدميه بسرعة، وينظر إليَّ ويبكي، كان يقول: لماذا تترك سيدتي وتذهب، تعال ساعدني نوقظها ونحملها معنا... بكينا ساعات معًا، وتحدثنا طويلاً مع جسد "پريچهر" البارد. كنت أسير ضائعًا متحيِّرًا حتى كادت روحي تخرج من جسدي، لم

يكن لي هدف أو مقصد إلا الموت. رأيت عدة أشخاص يأتون ناحيتي بخيولهم، أسرعتُ حتى يصلوا إليَّ أسرع ويأخذوا روحي، لم يبق لي أمل غير هذا. للأسف كانوا "قلي خان" وثلاثة أشخاص آخرين من جنود "سرفراز خان"، جاءوا للبحث عني.

عندما وصلنا إلى المعسكر، رويتُ لهم الحكاية، لن أنسى لحن صوت "سرفراز خان" ونظرته، قال: أنت من أكبر أشقياء الدنيا، علاج آلامك الوحيد هو الموت...

في اليوم التالي ذهبت مع الفرسان بكمية من التجارة إلى "استراباد" وأوصلتُ نفسي من هناك بكل سرعة إلى "طهران"، وقابلتُ أخي. كان قد عرف حديثًا منذ بضعة أيام قصة أسرنا، وبعد قلق شديد، قاموا ببعض الإجراءات. سألته عن "فريدون"، قال: ربما يكون قد سافر مع المهاجرين إلى "ألمانيا".

ذهبت مضطربًا إلى منزل "فريدون" وقابلتُ السيدة "رسا" فسألت عن "پريچهر"، فقلتُ: مرَضَت في الطريق وماتَت، قالت: الآن يمكن أن أعطيك رسالة "فريدون".

***

هذه هي رسالة "فريدون"!

"علي"، صديقي العزيز، أتمنى ألا تقرأ هذه الورقة أبدًا، وألا تتضايق لمعرفة هذه الأسرار، لأنني قلت لهم لا بد أن تكون قد تركت "پريچهر" كي يسلموك ورقتي. فأنا أفضل سعادتك على منافعي، وأحرم نفسي من صداقتك. لو كان من الممكن أن تظل مع محبوبتك، وتقضي الحياة في سعادة وتوفيق، فأنا مستعد لأن أرى صورتي وإلى الأبد في نظرك قبيحة قذرة.

ليس هدفي من كتابة هذه الوقائع، براءة الذمة، لكنني أكتب حتى أواسي خاطرك الحزين، ولمعالجة روحك المريضة، لأنني أتوقع بل أنا متأكد أنك بعد قليل أو كثير ستكشف ستار "پريچهر" وستضطر لرؤية طبيعتها الحقيرة.

حين علمتُ أنكما قد ذهبتما إلى "خراسان"، رأيتُ سيف البلاء على رأسِك، لأنني كنت أعرف لماذا أقدمت "پريچهر" على هذه الخطوة. لكن لم يكن يفيد أي إجراء أو تدبير من ناحيتي. في ذلك اليوم لم أخرج من المكتبة، ورحت أفكر فيك، كنت أشاهد تأثير العشق في وجودك: كأن عقلك قد ذهب من رأسك، فلا ترى في الدنيا شيئًا ولا تسمع أحدًا إلا "پريچهر"، خيالك يدور دائمًا في فلكها، حتى أنك أخذت طبعها وطبيعتها ونسيت شخصيتك! أنت لم تكن مظهريًا، ولا تحب النفوذ والزينة! رغم كل شغفك وحبك بالقراءة، تمر الأيام والشهور وعينك لا تقع على صفحة واحدة من كتاب!

إذا كانت المحبة هي علاج آلامنا، فهي كذلك مصدر البلاء حين تصادف غير أهلها، العشق نار، لو لم يكن، فإن منزل القلب يكون مظلمًا لكن لو سقط في غير مكانه، فإنه يحرق المنزل وأصحابه.

كلما فكرت في خيط رفيع يصل روحك ببعضها فلا أرى. فأنتَ تمارس العشق مع صورة "پريچهر" وخيالك، وتتخيل كل صفات الجمال في تلك الصورة التي بلا روح، كعابد الأصنام المتعصب.

أعرف أنك لم تذهب وراء الجمال مطلقًا، لم يستطع حُسن "پريچهر" أن يجذبك، فأنت جعلتها مسرحا لخيالات عشقك، وخدعك عشقها. ولو لم تبادر هي من ناحيتها، كان من الممكن أن تكون أى فتاة قبيحة موضع عشقك ومشاعرك الرقيقة. ثم يتولَّد عشق الصورة بعد ذلك عندك، وقعتَ من السماء إلى الأرض، وأُسرت في شِبَاك "پريچهر".

عرفتُها من أول يوم، حين قلتَ إن "پريچهر" تركت والدها وأسرتها من أجلكِ. لكنك قررت من فرط العشق وشدة الطيبة أن تغطي كل عيوبها، حتى تقبّلتَ بالتدريج كل أفكارها وعاداتها، وأحيانًا كنت تقلِّدها أنتَ أيضًا.

كنت أتحسر في كل مرة لتغيُّر أحوالك، كنت أنتقد نفسي فلماذا أتضايق، فلماذا لا يكون هذا التغيُّر باعثًا على سعادته، في العشق لا ينبغي أن تطلب إلا سعادة الرفيق. لا ينبغي أن يتعامل كل الناس وفق مبادئي الأخلاقية، ما أكثر أن تجرَّ معاملتي ومبادئي الآخرين إلى سوء الحظ.

كنت أقنع نفسي بهذا الكلام، لكني كنتُ قلقًا من نهايتك، لم يكن يصدقني بأن المرأة عابدة الشهوة تستطيع لفترة، أن تأمن الراحة لروحك! فالمتعة الجسدية لشخص، سرعان ما تؤذي وتضر، أما المتعة الروحية فهي تحفظ القلب طوال العمر. الذين لا يفكرون، ينجذبون بنظرة واحدة إلى جمال الشكل وتناسق القد، ويفقدون اللُب والقلب، فالجمال والحُسن كالصاعقة يحير العيون فيركع الرجل الجاهل، يصبح جسمه متشنجًا محتاجًا لكن ذلك لا يستمر، عندما يتزايد احتياج الجسم ويصير موضوع الشهوة عاديًّا، تخمد تلك الحرارة.

بعد فترة، علمتُ أن "پريچهر" تتعلق بأكثر من شخص! ....

دعني أعلن لك الحقيقة المفزعة، ولن أتحفظ حتى إذا كان في قلبك أي حزن لفراقها، تخرجه، لأنني متأكدٌ أن الشرف يُفَضل على العشق، وأنك أبعدت "پريچهر" عنك. الرجل الذي يرعى زوجة بلا

عفة في بيته ويبيع شرفه بقيمة لمس البدن الملوَّث، ليس لديه صفاء الإنسانية ومحبتها، ويعتبر أحقر من الحيوانات. القلب الذي يقبل المرأة الداعرة، منزله خرب سيئ، ليس به مكان للحب والوفاء. عشق امرأة خائنة ليس عشقًا، بل شهوة حيوانية، ليس هناك أي طلب في العالم الإنساني أكثر طبيعية من الوفاء بالعهد. الوفاء يعني الثبات وقوة الروح، الروح التي لا تطلب الوفاء، ليس لديها وفاء. مثل هذا الوجود كسفينة بلا دفة، دائمًا ذليل الشهوة الحيوانية.

العشق، ليس ذلا ودناءة، بل هو تحليق للروح في سماء الصفاء والسمو، كله متعة وتوفيق، العشق يعني اتحاد روحين ضد الدنيا. القلبان المتحدان، يحملان معدات جلب الألم والحزن وجيش المصائب ويفران. تقف كل الموجودات مسبحة ومادحة، أمام منظر عظمة اتحاد روحين، حتى الموت لا يمكن أن يقلل من نشوة وحلاوة العشق، أو يفصل عاشقين عن بعضهما!

ذلك الذي يصب السم القاتل في كأس سرورنا، ليس معشوقًا، ولن يكون معنا في الطيران بحرية، الحجر المعقود بجناحنا، ينبغي أن نُخلِّص روحنا من تحت حمله! الحياة يجب أن تكون كلها عشق وسرور ولن يتيسَّر هذا إلا بمدد العشق. لو لم يكن المعشوق رحيمًا، فلنسعد مع معشوق الخيال، لكن احذر أن نقترن بأجنبي وغير مناسب.

"پريچهر" كانت امرأة لعوبًا، وضعَت جمالها على طبق العرض، يتذوق طلابها منها بسرعة. تخشى التأخير، فتذبل ويضيع رونقها.

كل ما فهمته أنا من كلام وأفكار "پريچهر"، هو أنها كانت لا تعتبر أن عشقك كافيًا لجمالها، كانت تتمنى أن تسمع في كل خطوة كلمات العجز والحاجة والمدح والاستحسان، فيخفق قلبها من السعادة. كانت تتمنى أن توصل كل يوم شخصًا إلى جنة وصالها، وتبلي آخر بالهجر في يوم آخر! كانت طفلة تشهر سلاحها صوب كل شيء ثم تذهب وتسعد.

لا تعرف كيف مرَّ ذلك عليَّ صعبًا حين علمتُ بسلوك "پريچهر". بحثتُ لمعرفة الحقيقة، لسوء الحظ وبمجرد أن تأكدتُ، حاولت أن أغمز وألمز لك وأوقظك بكل جهدي، لكنك كنتَ ثملاً بالعشق بحيث إنك لو رأيتَ بعينيك ما كنت ستصدق. لكن لم يكن الذنب ذنب العشق فقط، فأنت من شدة الطيْبة كنتَ أعمى وأصم. تفهم أصعب الموضوعات العلمية، لكنك لم تتنبه إلى تلميحاتي في موضوع "پريچهر"، حتى رأيتُ الوضع مثل كفتي الميزان، "پريچهر" في السماء وأنا في الأرض، ولو كنت قلتُ لك الحقيقة عارية فلن تصدق، وسوف تلجأ إلى "پريچهر" مني. ثم طلبتُ منك أن تواجهني بها وجهًا لوجه ربما أستطيع أن أصرفها عن هذا الطريق المعوج.

في اللقاء الأول، رأيتُ آثار الشهوة والتكبر في وجودها، بالطبع لم يكن جمالها في نظري خارقًا للعادة. كانت جرأتها وغرورها ومدحها وتملقها وخاصة عبوديتك لها التي بلا مبرر، تظهرها وكأنها إلهةَ العظمة والجمال.

المرة الثانية أو الثالثة كانت حين رأيتُها تلقي بشِباكها حولي، لم أتضايق لأنني اقتربتُ من هدفي، كذلك توقعتُ أن تَملَّ من عدم اهتمامي، كانت تستخدم كل ما لديها من حِيَل لخداعي. كلما كنتُ أكثر برودة زادت حرارتها حتى جاءَت أخيرًا ذات يوم إلى منزلنا، كنا في انتظارِك. قالت: لم أرَ قط شخصًا في برودك، أليس لك قلب؟! قلتُ: لماذا فأنا أمتلك بالطبع قلبًا من أكثر القلوب حساسية. قالت: إذن فلماذا لا أسمع منك مطلقًا كلمة أو حرفًا عن العشق، ولم تبد رائحة القلب المحترق من كلامَك، كأنَّكَ لم تحب مطلقًا طوال حياتكَ!

قلت: لكنك لا تدرين ما وراء هذه الستارة من ثورة وضجيج، أي صراع وجدال لي مع قلبي المضطرب، ماذا أفعل فأنا لم أجد رفيقًا لروحي حتى الآن؟.

كانت "پريچهر" طبعًا عديمة الحياء، ونتيجة لتحمُّلك، كانت تزداد وقاحة كل يوم، قالت: أنا أعرف واحدة تحبك جدًا، مغرمة

ومجنونة بك، هي كما تريد... وصمتُ نفسي بالغباء وقلتُ: هذا الملاك في أي سماء؟ قالت: يجلس أمامك. أرادَت أن تتعلق برقبتي، فأجلستُها مكانها، وقلتُ: أنتِ لستِ حرة، ووجودك بمنزل "عليّ" رهن العشق والشرف، بأي جرأة وأي سبب تريدين خيانته؟! ألا تدّعين لنفسك العزة والشرف!

قالت: الذنب ذنب "عليّ" لأنه يفكر في ألف شيء غيري، أنا أريد واحدًا ليس لديه عمل آخر غير العشق.

قلت: مسكين "علي" لأنه ليس لديه فكر أو ذكر إلا أنتِ.

قالت: بالتأكيد ينبغي أن يكون كل رجل في فكر زوجته، لكني لا أقتنع بالحياة العادية، فأنا ضحيتُ بالدنيا كلها من أجل العشق، وسأذهب وراءه كل حياتي.

قلتُ: على هذا فأنتِ لديكِ شهوة وليس عشقٌ، ليتكِ تعرفين أي لطف وصفاء في التضحية بالشهوة من أجل العشق! أي راحة وعفة تمنحها ذكرى المحبوب للروح، فتغمض العين عن الجميع! ألا تعرفين أن العشق الحقيقي يرفع قيود الشهوة المحرقة وكل الأفكار المؤلمة بكل سهولة عن عاتقنا، ويجعل أشواك الحياة كلها ورود! العشق الحقيقي حين يهدأ عن ثورته يصبح روضة لصفاء المحبة والعشق، لكن ربما لم تكوني عاشقة لـ"عليّ" مطلقًا.

فقطعَتْ كلامي وقالت: من الأفضل ألا نتحدث في هذا الموضوع ثانية، ولن يتحطم كياني لعدم رغبتك بي!

انتهى ذلك اليوم إلي هنا، كما توقعت، فرغ صبرها من سكوتي، وفي الأسبوع التالي عادت ووصلت إلى منزلنا أسرع منك، وعندما خرجت أمي من الحجرة، ورأت أنها معي وحدها، كانت تبدي عشقها بعجلة واضطراب، قلتُ: إن قلبي له إنسان خاص لا يتخذ من قلوب الآخرين مكانًا له. فاكفهرَّ لونها وانعقد لسانها. ولم أضيِّعُ الفرصة، قلتُ: أنا أعرف جيدًا تصرفاتك غير اللائقة، أعرف أين تذهبين، ومع مَن كنتِ وتكونين، لا تخجلي، وتعلني عن محبتك لي!

دون أن تنظر إليَّ قالت: الذنب ذنب "عليّ"، لماذا يتركني طليقة أذهب وحدي كل يوم إلى السوق، وقتما أريد للتنزه في الحارة والسوق. الذنب ذنب هؤلاء الرجال الذين يسيرون وراء السيدات، ولا يتركونهن، ما لم يصلوا إلى هدفهم! أنتَ تعرف كم من عاشق مقتول لديَّ. قلتُ: أنتِ تضعين الذنب على عاتق "عليّ" لثقته واطمئنانه إليك، وتلومينه لأنه لم يضع الأغلال بقدميكِ؟ واحسرتاه على حال ذلك المسكين الذي ينبغي عليه أن يمنع زوجته دائمًا من الوقوع في الماء والنار كالطفل الرضيع، الزواج غير الطفولة. المحبوب الذي يهرب في الخيال حسنًا فعَل إن ذهب. أما ما قلتِ بأن التقصير من الرجال الذين يسيرون وراء السيدات، فإنك تسرقين

شرف الإنسانية بهذا الخطـأ مـن الـسيدات، وتقوضـين وجودهـا وتضعينها في قائمة الأشياء دون إرادة... الخلاصة أنني قرأت عليها كتابًا من هذا الكلام، لكن ما فائدة الدقّ على الحديد البـارد... كنـت أتمنى أن تكون لديَّ تلك الشهامة والشجاعة التي كانت فيك، وأستطيع أن أقول لك تلك الحقيقة بلا مواربة حتى تبعد "پريچهر" عنك فـورًا وتتحمّل ألم فراقها برجولة حتى يأتي الشفاء بـدواء مـرور الأيـام. لسوء الحظ لم أكن أرىَ فيك خاصة بهذا الموضوع، إلا آثار الضعف والذل، حاولتُ دون فائدة أن آتي بالمرأة الغانية إلى الطريق المستقيم!

كانت "پريچهر" تزداد تعلقًا بي أكثر كل يـوم، وتُقـسِم أنهـا قطعَت كل علاقاتها بالآخرين، حتى أنها تركَت "سلطان مهدي خـان" الذي كانت تحبه كثيرًا.

رضيَت مرغمة بـصداقتي الأخويـة البـسيطة، وأعتقـد أن معاملتها لك كانت قد تحسَّنت، لكني كنت أعرف أن ما أريـده لـن يتحقق، ولن يكون لديها جدارة صداقتك وعشقك، كنتُ نادمًا فلمـاذا أمنعها عن أفعالها، ربما تُفتَح عينيك في النهاية وترى الحقيقة.

في اليوم الأخير حين جئتَ إلى منزلي، جاءت "پريچهر" قبـل مجيئك بساعة واحدة مضطربة متحيرة، وقالت: قل كل ما تريد، أنـا لا أحب "عليًا"، ولو لم تكن تحبني، سأتركه وأذهب إلى خراسان عند "السلطان مهدي خان"...

كانت تهددني ضمنًا بأنني سأريق ماء وجهك عند "علي"، وأعتبرك متهمًا مذنبًا! ضحكتُ لأنني كنت أعرف أنك من المستحيل أن تظن بي السوء مطلقًا، لكني كنت مخطئًا! كانت ضحكتي لم تكتمل بعد حتى رأيتُ وجهك المضطرب فجأة أمامي، أعترف أنني اضطربت وفقدتُ نفسي، وإلا كان من الضروري أن أمنعك وأضع الحقيقة أمام عينيك، رغم أنني لا أعتقد أنك كنت تستطيع أن ترى الحقيقة، في تلك الحالة.

لكني لم أكن أعرف أنك ظالم إلى هذه الدرجة، فقد أتعبت وآلمتَ روحي بتلك الحوالة التي أعطيتها لي باثني عشر ألف تومانٍ. فأخذتُ الألفي تومان التي كانت لي ووضعتُ الباقي باسمك في البنك، تصورت أنه عندما تخبو نارك سآتي وأفتح عينيك، حينما سمعتُ أنكما ذهبتما إلى "خراسان" معًا، سُرِرت لأنني كنت أتوقع أن تذهب "پريچهر" مع "سلطان مهدي خان" هناك، وتستريح أنتَ من شر وجودها.

عزيزي "علي"، كنت أتمنى مجددًا أن أفضي لك بألم قلبي، لكن الآن تلقيت الأمر بأن أذهب مع المهاجرين، ليتك كنت موجودًا فترعى أمي وأختي، لأنني على يقين من أنني لن أعود حيًا من هذه الحرب، أذهب وأضحي بروحي فداءً للوطن، أستودعك الله وبقلبك الطاهر.

صديقك "فريدون"

بعد قراءة هذه الورقة، لم يبق لديَّ أي شك في محبة وبراءة "فريدون"، وتركتُ كل ما أملك لأخت "فريدون" وأخي "حسين" وزوَّجتُ كلا منهما للآخر. أطوي صفحة الغرب بحثًا عن "فريدون"، البعض يقولون: إنه قُتِل، والبعض يتوقع أنه ذهب إلى "إستانبول"، سأذهب حتى أجده حيثما يكون.

***

كنت أفكر كثيرًا بعد قراءة هذه القصة في هذا المعني لو أن جمالنا كله بسبب العشق والوفاء، فكل ما نعانيه من ألم فهو بسبب الخيانة والعشق غير المناسب....

حينما وصلت إلى وسادة "علي"، كان في حالة الاحتضار، قبَّلتُ وجهه ويده. فنظر لي نظرة مفعمة بالحب، ثم أغمض عينيه وأسلم الروح بين أحضاني.

هذه الحكاية ليست أسطورة.

***

المؤلف في سطور:

محمد حجازي (مطيع الدولة)

ولد بمدينة طهران عام ١٨٩٠م الموافق لعام ١٣١٨هـ، أتم تعليمه الأوّلي والمتوسط بطهران، ولم يكد يتم عامه الرابع عشر حتى توفي عنه والده، فالتحق، وفي سن مبكرة، بالعمل الحكومي.

ثم أوفد إلى أوربا من قِبل وزارة البريد والتلغراف، وقضى بباريس ثمانية أعوام، ثم عاد إلى إيران، وتقلد مختلف المناصب، وكان أحد الأعضاء المبرزين في نفس الوزارة ولفترة طويلة.

عاصر محمد حجازي فترة دقيقة من تاريخ إيران، وتأثرت حياته بما شهدته تلك الفترة من اضطرابات وقلاقل منذ نهاية سلطنة (آل قاجار) وبداية سلطنة (آل بهلوي) وازدهارها ونهايتها.

في عام ١٩٣٨م فكر الشاه في تأسيس (هيئة تربية الأفكار) كوسيلة لنشر الدعاية وبسط نفوذه على مختلف أرجاء البلاد من ناحية، ومن ناحية أخرى لإيجاد نوع من الرضى العام وتوجيه العقل الجماعي للإيرانيين، وكانت هذه الهيئة مكونة من عدة لجان أهمها:

- لجنة الصحف والمجلات.
- لجنة المسرح.
- لجنة الموسيقى.
- لجنة الخطابة.

وعَهِد الشاه إلى محمد حجازي برئاسة لجنة الصحف والمجلات، فاتخذ من منبر الصحافة ميداناً للتعبير عن فكره وآرائه.

إنتاجه الأدبي:

أولاً الروايات:

١. "هما": وهي باكورة أعماله الأدبية ١٩٢٧ (تحت الطبع في المركز القومي للترجمة).
٢. بريچهر (ملائكية الوجه): وهي ثانية مؤلفاته ١٩٢٩.
٣. زيبا: صدرت عام ١٩٣١م، وتعتمد شهرة حجازي ككاتب على هذه الرواية. (صدرت عن المركز القومي للترجمة).
٤. پروانه (الفراشة): ١٩٥٣.
٥. سرشك (الدموع): وهي آخر أعماله الروائية وصدرت في نفس العام (صدرت عن المركز القومي للترجمة).

أما مجموعاته الأدبية فهي:

- آيينه: المرآة (وتقع في مجلدين).
- انديشه: الفكر.

- نسيم : النسيم.
- آهنكَ: اللحن.
- ساغر: الكأس.
- آرزو: الأمل.
- پيام: الرسالة.

أعماله المسرحية:

- محمود آقارا وكيل كنيد: انتخبوا السيد محمود حافظ.
- عروس فرنكَي: العروس الإفرنجية.

أعماله التاريخية:

- خلاصه تاريخ إيران تا انقراض قاجاريه: خلاصة تاريخ إيران حتى انقراض السلسلة القاجارية.
- هزار سخن: الألف حديث.
- ميهن ما: وطننا.

كما ترجم العديد من الكتب الأجنبية، وتقلد مناصب مهمة منها، عضوية مجمع اللغة الإيراني الدائمة، ورئاسة مجلس الثقافة الإيراني الباكستاني، ورئيس الصحة النفسية وسلامة الفكر، ورئاسة الإدارة المالية للإذاعة، بالإضافة إلى شغله مقعدًا في مجلس الشيوخ في دورته الثانية والثالثة بالتعيين، وفي دورته الرابعة والخامسة بالانتخاب عن طهران. وتوفي عام ١٩٧٤م بعد حياة حافلة بالعطاء الأدبي.

المترجمة فى سطور:

سامية شاكر عبد اللطيف سلامة

- مدرس بقسم اللغات الشرقية وآدابها- كليـــة الآداب جامعـــة حلوان.
- دكتوراه اللغات الشرقية وآدابها عام ٢٠٠٢م
- - ترجمت للمركز روايـــات "ريبـــا" و "دمـــوع" و "همـــا". لمحمد حجازى.

المراجع فى سطور:

ماجدة محمد على العنانى

- أستاذ اللغة الفارسية وآدابها (عميد كلية الآداب - جامعة حلوان).
- لها العديد من الكتب المترجمة من اللغة الفارسية إلى اللغة العربية:

- خوخة وألف خوخة- تأليف صمد بهرنكى- المجلس الأعلى للثقافة - القاهرة - ١٩٩٧م.
- رواية نون والقلم - تأليف جلال آل أحمد - المجلس الأعلى للثقافة - القاهرة- ١٩٩٩م.
- رواية محبوبة (بإمداد خمار)- تأليف فتانه حاج جوادي- المجلس الأعلى للثقافة - القاهرة - ٢٠٠٤م.
- أساطير آذربايجانية - تأليف صمد بهرنكى - ترجمة ماجدة العنانى - قيد النشر.

- بالإضافة إلى العديد من الأبحاث فى مجال الأدب الفارسى الحديث والمعاصر.

التصحيـــح اللغوي: **رجب عبد الوهاب**
الإشـــــراف الفني: **حســــن كــامل**

فكرة القتل، لم تخطر ببالى طول حياتى قط، ولم أكن أستطيع أن أرى طائرًا يُذبح، وكنت أغضب من زملائى فى المدرسة حين يهاجمون العشق، ودائمًا أتعارك معهم. ولم أكن أعتبر القتل لأى سبب، وفى أى مكان مفيدًا أو ضروريًا، وأؤمن أنه حينما تُرتكب جريمة القتل فى أى مكان وأى وقت، تكون الحيوانية والوحشية قد تغلبتا على العقل والمنطق. عندما ذهبتُ إلى السوق واشتريت المسدس، لم أكن أنا، بل هو وجودى الحيوانى .

تصميم الغلاف: أحمد بلال